خالد محيي الدين

الدين والاشتراكية

كراسات الثقافة الجديدة

خالد محيي الدين

الدين و الاشتراكية

الناشر
دار الثقافة الجديدة
٣٢ شارع صبرى ابو علم ـ القاهرة
تليفون ٥٨٧٨٠ / ٥٨٤٧١

من الدار

بهذا الكتيب تقدم دار الثقافة الجديدة لقرائها ، وتبدأ فى اصدار كتاب شعبى بسعر زهيد ، وفى نفس الوقت يعالج بشكل مركز احدى القضايا الملحة ، المطروحة على الرأى العام والتى تشغل بال قطاعات كبيرة من المواطنين ٠

ونحن فى هذه الكراسـات ـ مثلهـا فى ذلك مثل كل ما اصدرناه حتى الان ـ نلتزم بخط لا نحيد عنه ٠٠ هو مصلحة جماهير الشـعب الكادح ٠ واحتياجاته الثقافية ، ونلتزم بألا يحكم العامل التجارى ما نصدره ، ولن نلجأ أبدا الى الابتذال والاثارة أو الزيف والتفاهات التى تغرق سوق الكتاب والتى يطبع منها مئات الالوف من النسخ ٠

وقد رأينا ان نبدأ هذه السلسلة بقضية تشغل بال جماهير الشعب وهى قضية « الدين والاشتراكية » وذلك فى وقت تحاول فيه بعض القوى ذات الاصـوات العالية والامكانيات المتاحة أن تفتعل التناقض بين الدين والاشتراكية ٠٠

ويزيد الامر أهمية ان خـالد محى الدين مقـرر تنظيم اليسار وأحد قادة ثورة ٢٣ يوليو ، وأحد الاشتراكيين البارزين فى مصر والعـالم العربى ٠٠ هو الذى يعرض هذه القضـية ويناقشها ٠

تقـــديم

نحن لا نزعم ان الاسلام دين الاشتراكية ، ولا أن التطابق تام بين فكر العدل الاجتماعى فى الاسلام وبين الاشتراكية ٠ لاننا لو ابحنا لانفسنا ذلك لكان مباحا ايضا لخصومنا الفكريين من أنصار الرأسمالية ودعاة الاقطاع وكهنة التفاوت الطبقى والمظالم الاجتماعية ، أن يزعموا هم الاخرين بأن الاسلام دين الرأسمالية ، وأن التطابق تام بينه وبين المذهب الفردى فى الاقتصاد والاجتماع ٠٠٠ ولو حدث ذلك أو شىء منه ، لوجدنا كل فريق يسعى ليقتنص نصا أو نصوصا من آيات القرآن الكريم ٠ وحديثا أو أحاديث من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم يذهب ليلوى ، بالتفسير والتأويل عنق هذه النصوص ليعطى التأييد والمساندة لما يريد أن تذيع فى الناس من فكر وآراء ٠٠ وهو الامر الذى يعود بنا الى صور من التاريخ لا نرضاها ، يوم أن اختلف المسلمون لاسباب سياسية واجتماعية وقبلية ، ثم وقع نفر منهم فى خطأ اضفاء الصبغة الدينية على هذه الخلافات ، فحولوا الخلاف السياسى والاجتماعى بين المؤمنين بالدين الواحد الى خلاف دينى استخدموا فيه سلاح « الكفر والتكفير » ومصطلحاتها ٠٠ الامر الذى نبه به الامام على بن أبى طالب الى مخاطره عندما قال كلمته الشهيرة : ان القرآن حمال أوجه : وأن شعارات هؤلاء الناس هى : كلمات حق يراد بها باطل !!

ثم ٠٠ ماذا يكون الموقف اذا نحن « صنفنا » الدين فى اطار مذهب اجتماعى ونظام اقتصادى بعينه ، ثم جرى نهر الحياة الذى لا يتوقف أبدا فتجاوز المرحلة التاريخية التى كان فيها هذا المذهب وذلك النظام يمثلان الاستجابة المثلى لمصالح جماهير الناس : ألا نكون بذلك قد حكمنا على الدين « باستنفاذ اغراضه » والانضمام الى أنماط من الفكر وألوان من الدعوات تجاوزتها الحياة فى طريقها المتطور أبدا ؟! ٠٠ وهو الامر الذى يتنافى مع ما نؤمن به من صلاحية أصول الدين لكل زمان ومكان ؟ ٠٠

اننا نربا بانفسنا عن هذا الموقف الفكرى ، وندعو كل فرقاء العمل السياسى والاجتماعى فى وطننا الى الكف عن « لعبة » تصنيف الدين فى خانة نظام اقتصادى بعينه أو مذهب اجتماعى بالتحديد ٠٠

***

لكن ٠٠ تبقى قضية « العلاقة » بين الاسلام ، كدين ، وبين المذاهب الاجتماعية التى تتصارع اليوم على أرض واقعنا الوطنى ، وهى المذاهب التى تعكس المصالح الاجتماعية المختلفة والمتناقضة لمختلف الطبقات ٠٠٠ ما موقف الاسلام من هذه المذاهب ؟ والى أى المصالح الاجتماعية ينحاز ؟ ولأى الطبقات يمنح التأييد والمساندة والتزكية فى هذا الصراع ؟؟

اننا نؤمن بوجود « علاقة » بين أصول الفكر الاسلامى وبين الحلول التى تقدمها المذاهب الاجتماعية المختلفة لمشكلات

الانسان ، لأن الاسلام دين غير مقطوع الصلة بأمور الحياة الدنيا ومشكلاتها ·· لكننا نؤمن أيضا أن هذه العلاقة لاتتمثل فى حلول جاهزة وأنظمة مفصلة على الانسان المعاصر أن يستخرجها من بطون الكتب ليضعها فى حيز التطبيق · وانما هى تتمثل أساسا ، صورة دعوته الخالدة الى العدل الاجتماعى وسيادة الانصاف بين الناس ، والنظر الى مجموع الامة ككل واحد متكافل ، وتغليب مصلحة المجموع والاكثرية على مطامع القلة المتعارضة مع مطامح المجموع ·

فالعدل الاجتماعى الذى دعا اليه الاسلام أشبه ما يكون « بالمثل الاعلى » الذى سيظل الانسان يسعى نحوه ، مؤملا تحقيقه فى واقع الحياة ، وكلما اقترب من صورته « المثلى » وحقق قدرا أكبر من العدل فى واقعة ، أدرك أن الطريق ما زال ممتدا ، بل وطويلا وأن المزيد من العدل يتطلب المزيد من السعى فى اتجاه هذا المثل الاعلى « الذى دعا ويدعو اليه الاسلام ·· فمطالب الانسان وطموحاته لا تعرف الحدود ، وآماله فى المزيد من العدل على هذا الكوكب ليس لها حدود ·

وبهذا الموقف الداعى بجوهر الفكر الاسلامى عن العدل الاجتماعى وبجوهر التطور المستمر للنظم والافكار الاقتصادية والاجتماعية ، ندرك أن كل الدعوات والمذاهب الاجتماعية التى تستهدف تحقيق أكبر قدر من العدل الاجتماعى لجماهير الناس هى الدعوات والمذاهب التى تسير ويسير أصحابها على الطريق الذى دعا اليه الاسلام ويبشر به رسول عليه الصلاة والسلام فالواقع الاقتصادى يتوطر فيختلف ، وتبعا لذلك تتطور المذاهب

الاجتماعية وتتغير الدعوات والاسماء ، ولكن تبقى الحقيقة الاكيدة : أن الذين يبتغون بنضالهم تحقيق أكبر قدر من العدل الاجتماعى لاوسع جمهير الامة هم الساعون الى الاقتراب أكثر فاكثر من « المثل الاعلى » للعدل الاجتماعى الدى يبشر به الاسلام • وبعبارة فقهاء الاسلام: فأينما توجد مصلحة الامة فثم شرع الله •

هذا عن الاصول الجوهرية التى تمثل القاعدة العامة والقانون الكلى لموقف الاسلام كدين ، من قضية العدل الاجتماعى فى هذه الحياة •• وهى الاصول التى نلتقى بها فى القران الكريم والسنة النبوية الشريفة •

- فالارض جميعها بكل ما فيها وما عليها من ثروات ، قد خلقها الله لكل بنى الانسان لا لقلة مرتزقه مستغلة ومستبدة (والارض جعلها للانام) •

- وهذه الثورة فيض من الخالق يعالج الانسان ، كجنس ، أمر تنميتها وتسخيرها لرفاهيته وهو فى ذلك وكيل ومستخلف لا مالك مستبد مستاثر (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) •

- وتكافل الامة أمر مقرر ، وتضامنها وجماعيتها ينبه اليها القرآن الكريم عندما يضيف المال والاموال فى أغلب المواطن والايات الى ضمير « الجمع » وكما يقول الامام محمد عبده فى تفسير قول الله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ••) : « أن الله

أضاف الاموال الى الجميع ·· للتنبيه على تكافل الامة فى حقوقها ومصالحها ، كانه يقول « ان مال كل واحد منكم هو مال أمتكم » ·· فصاحب الحق الاصيل فى الثروة ، بنظر الاسلام ، هو الله وحق الله هو حق الجماعة والمجتمع كما قرر علماء الاسلام ·

● وارادة الله ، التى علينا ان نسعى لتحقيقها ، كى نكون أهلا لخلافته فى الارض ، ارادة الله أن يكون العاملون والفقراء والمستضعفون فى الارض هم الائمة والقادة ، وهم الوارثون لما فى هذه الارض من خيرات (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) ·

● ويكمل هذه الاصول القرآنية ـ التى اشرنا لطرف منها ـ التطبيق والتشريع الذى نهض به الرسول عليه الصلاة والسلام ·· من « المؤاخاة » بين المسلمين ·· وجعل الارض لمن يحييها ويزرعها ·· ونهيه عن الاحتكار واستغلال حاجات الناس ··وتقريره جماعية الملكية والانتفاع لمصادر الثروة الاساسية فى مجتمع المسلمين ·

اما التطبيقات الاخرى التى شهدها تاريخ المسلمين ، فلقد تنوعت تبعا لتطور واقع الحياة ، ووفقا لاقتراب اصحابها او ابتعادهم عن متطلبات العدل الاجتماعى الذى دعا اليه الاسلام ·· ومثلها فى ذلك الاجتهادات والتشريعات الفقهية التى كونت تراثنا فى هذا الميدان ·· فهى آثار رجال اجتهدوا

لعصرهم فى ضوء فهمهم وتفسيرهم للقواعد الكلية التى حددها الاسلام فى هذا الباب ··· وبالمثل فان لعصرنا مقتضياته التى تستنهض رجال كى يجتهدوا ·

ولحسن حظنا ··· ولسوء حظ الاخرين ، أن الاغلب الاعم من فقهاء الاسلام ومفكريه ، قد كانوا أوفياء وأمناء للروح الجماعية التكافلية التى مثلت حجر الزاوية فى النظرية الاجتماعية للاسلام ، فانحازوا اجتماعيا ، مع الاسلام ، الى معسكر الاكثرية العاملة والمنتجة فى المجتمعات التى عاشوا فيها ·

فمن عمر بن الخطاب الذى اعلن : لئن عشت الى العام المقبل لاخذت فضول ـ (زيادات) ـ أموال الاغنياء فرددتها على الفقراء ، وجعلت الناس فى العطاء سواء ··· الى على بن أبى طالب الذى قطع بأنه : ما جاع فقير الا بما متع به غنى وأن الفقر فى الوطن غربة ، بينما الغنى فى الغربة وطن ! ·· الى عمر بن عبد العزيز الذى شبه ثورة المجتمع بالنهر الاعظم العام الذى جعل الاسلام حق الناس فيه سواء « شربهم فيه سواء ! ·· الى الامام الغزالى الذى يعلمنا ان مذهب الصوفية فى المال والثروة أنها كالماء فى النهر ، على الانسان ان يشرب منها بقدر حاجته ، دون أن يحوزها فى « القرب أو الروايا » ·· الى جمال الدين الافغانى الذى بشر بحتمية سيادة الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم ، عندما يسود العلم الصحيح ويدرك الانسان وحدة أصله ، وأن العمل النافع هو أساس التفوق فى الحياة ··

نعم تلك هى الزاوية التى نظر منها الاسلام كدين،للمسألة الاجتماعية ٠٠ الى المجموع كان انجيازه ، للأكثرية اسهدف ايصـال ثمرات العدل الاجتماعى فى هذه الحياة ٠٠ بل لقد كانت تلك هى ارادة الله التى جاء لتحقيقهـا كل الرسـل على امتداد تاريخ الانسان ٠

ألم يرفض أغنيـاء مكة والطـائف دعوة محمد ، عليه السلام ، لمضمونها الاجتماعى الثورى ، ولنزول كتابها الكريم على رسول فقير اتبعه جمهور من الفقراء والرقيق والمستضعفين فقالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) كما قال أسلافهم لنوح عليه السلام (أنؤمن لك وأتباعك الارذلون ؟) (ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) !

فمنذ آن فرض الاسـتغلال والمسـتغلون على جمـاهير العـاملين خوض معـارك الصـراع الاجتمـاعى كان انحياز اصحاب الافكار النبيلة والدعوات الاصلاحية والثورية ـ وفى مقدمتهم الرسـل والانبيـاء بدعواتهم الالهية ـ الى صفوف الاكثرية العاملة ٠ وهم بذلك انما كانوا يسـعون الى تحقيق ارادة الله فى ان تصبح القيادة ويصبح الميراث فى هذه الارض للمستضعفين فيها ٠

- وعن موقف الاسلام هذا ٠٠٠
- وعن علاقة فكره الاجتماعى بالاشتراكية التى تمثل صيغة التغيير الاجتماعى ونظريته فى مجتمعنا الراهن ٠٠

نترك القارىء مع صفحات هذا الكتاب ٠

خالد محيى الدين

الدين والاشتراكية *

منذ امد طويل وثمة خاطر يلح على الحاحا شديدا بأن اكتب هذا الكتاب ·· ويتجـدد هذا الالحـاح كلما قـرأت أو سمعت بعض الدعاوى والهجمات التى تشن ضد الاشتراكية تحت ستار الدين سواء أكانت بحسن نية أو بغيرها ·· ذلك اننى اعتقد اعتقادا جازما بأن المؤمن الحقيقى بتعاليم الاسلام فى جوهرها وروحها لا بد لايمانه هذا ان يدفعه الى الوقوف بجانب الجماهير الكادحة فى نضالها من أجل الغاء الاستغلال فى أرض الوطن وعلى النطاق العالمى كله ·

كما أن الاشتراكية هى الصـياغة المعاصرة التى تمكن الانسان من النضال لتجميع الجماهير من أجل القضاء على استغلال الانسان للانسان ··

والحقيقة اننى أعتقد ان كثيرين غيرى قـد واردتهم ولا تزال تراودهم هذه الفكرة··ولكن كثيرين من المؤمنين قد أثرت فيهم الدعاوى الخـاطئة حول الاشـتراكية فنفرتهم منها دون دراسة موضوعية ·· وان كثيرين من الاشـتراكيين قد أثرت فيهم نفس الدعاوى فعزلتهم عن دراسة التراث الاسلامى وفهمه فهما صحيحا وعلميا ·

---

* نشرت بمجلة « الكاتب » عدد مارس ١٩٦٨

ولهذا فان ثمة فجوة قائمة تمكن القوى الرجعية من ان تعزل عن مجرى النضال الانسانى من أجل الاشتراكية والديمقراطية والسلام ، جماهير كثيرة وعناصر مخلصة تأثرت بهذه الدعاوى فوقفت بعيدا أو أتخذت موقفا سلبيا من معركة البناء الاشتراكى فى وطننا ومعركة النضال الاشتراكى فى العالم كله •

والحقيقة اننى شخصيا قد مررت بتجربة خاصة تدفعنى الى الكتابة تعبيرا عنها •• فأنا قد عانيت شخصيا من وطأة هذا التناقض المفتعل ••

ففى بدء دراستى للفكر الاشتراكى وخاصة للجانب الفلسفى المادى من كتابات بعض منظرى الاشتراكية أحسست أن ثمة نقاطا محددة يبعدنى ايمانى عن الموافقة عليها ••

وظللت أمدا تحت وطأة هذا التناقض •• فانا أومن ايمانا جازما بالدين كمعتقد وكضرورة لحياتنا •• وأومن أيضا بأن الاشتراكية تقدم للانسان منهجا علميا يمكنه من العمل المثمر ضد الظلم ولتمكين الانسانية من بناء مستقبل تسوده الرفاهية والرخاء •

وهكذا بدأت محاولتى لفهم اكثر عمقا لتعاليم الدين وفهم اكثر عمقا للفكر الاشتراكى فاذا بى أجد اننى اسير فى طريق واحد وليس فى طريقين •

فالدين والقيم الدينية ضرورة لمجتمعنا فهى بما تتضمنه من وازع اخلاقى وبما يفرضه الايمان على المؤمن من علاقات

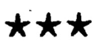
مع غيره تقوم على أساس من الرحمة والمودة والعدل واحترام الغير ·· وبما يلقنه لجماهير المؤمنين ان لا تخشى الا الله وحده ·· وان أى طغيان أو تحكم انما هو محاولة لمشاركة الله فى جبروته ·· وان على الانسان ان يقاوم الظلم والظالمين بيده ولسانه وقلبه ·· وهو يحصن المؤمن ويبعده عن الانحراف بما يخلقه من علاقة مباشرة ودائمة ومستمرة بينه وبين ربه ·

وهكذا فان الدين يعصم الحاكم والمحكومين جميعا ويحضهم على فعل الخير ويشكل رقيبا مستمر اعلى ضمير كل منهم يحاسبه ويحثه على تجنب الزلل ·

واذا كان العمل السياسى ينجح فى أن يقوى ضمائر عدد من القادة ويحميهم من الزلل - بايمانهم ببعض القيم والمثل السياسية الدنوية فان الدين قادر على أن يمنح قيما مماثلة للجماهير كافة ·

واذا كان الدين ضرورة فان الاشتراكية هى الصيغة العصرية التى ولدت نتيجة لتطور الفكر الانسانى فى صراعه الطويل بحثا عن الحقيقة حتى توصل الى كشف القوانين العلمية التى تحكم حركة المجتمع وتطوره نحو حياة افضل خالية من الاستغلال ··

وعلى ضوء فهمى لهاتين الحقيقتين (جوهر الدين وجوهر الاشتراكية) بدأت هذه الدراسة ·



ومنذ البداية أود ان أوضح انني خلال هذا النقاش لا أريد ان اقع فى خطأ وقع فيه الكثيرون عندما ناقشوا المسألة على أساس محاولة نفى ان هذاك تناقضا بين الدين والاشتراكية ، أو انه من الممكن للفكرين الدينى والاشتراكى ان يتعايشا معا دون صدام ٠٠ ولكنى أريد أن انهج فى هذا البحث طريقا اخر **هو أن الاسلام وقيمَ العدالة والمثل العليا التى اتت بها الثورة الاسلامية الاولى على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) تمثل بالنسبة لنا فى خطوطها الكلية والعامة المنطلق الذى يؤدى بنا عند الاسترشاد بها فى ظروف عصرنا ومجتمعنا ووفق ضرورات العصر وقوانينه الى طريق واحد ٠٠ وهو طريق الاشتراكية كامتداد طبيعى للتجربة الثورية الاولى فى الاسلام ٠٠**

والحقيقة ان الاسلام بما نادى به من مبادىء ومثل وقيم وأفكار قد اصطدم منذ اللحظة الاولى وكان طبيعيا أن يصطدم بمقاومة ضارية من كبار التجار ورجال المال فى مكة والرجعية الدينية هناك ٠٠ فقد شعر هؤلاء ان هذه المبادىء الجديدة بما تنادى به من مساواة بين الناس بصرف النظر عن جنسهم ولونهم وقوميتهم وأصلهم الطبقى ٠٠ وبما تنادى به من مبادىء العدالة والشورى تهدد مصالحهم الطبقية ٠٠ ولعل هذا خير دليل على ان الدين بما ينادى به من مثل وما قدم من تعاليم وأوامر هو دين للكادحين والمستضعفين أولا ، وان لم يكن أخيرا ٠

(ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض

ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض•)
« صدق الله العظيم »

ولانه دين المستضعفين فقد اتخذ موقفا من هؤلاء الاغنياء الذين كانوا يتحكمون فى ثروات مكة •• فاخذ يسد امامهم روافد الثروة الاستغلالية واحدا بعد الاخر ••

فاذا كان الرق أحد سبلهم الى الثراء والجاه فقد وجه اليه الاسلام ضربات فتحت آفاقا جديدة لتحرير العبيد وتصفية هذه العلاقة والحث على ان البشر جميعا متساوون كاسنان المشط •• وقد شرع الاسلام من التشريعات والقواعد والنواهى ما يعجل بتصفية هذا النظام العبودى ••

وكان الربا هو ايضا أحد المصادر الرئيسية للثراء وخلق ما يمكن تسميته « بالتراكم » فحرم الاسلام الربا واسقط ما على المدنين من ديون باثر رجعى •• والحقيقة أن تحريمه للربا ليس مجرد موقف من الاثرياء لكنه يتضمن مضمونا أعمق

فالربا هو فى الحقيقة مال يكسبه الدائن بلا عمل ••• وانما يأتى عن طريق التسليف ، أى أن المال يثمر مالا جديدا دونما جهد يبذل من مالك المال ، وانما يأخذه من كد المدين وكدحه ، ومن هنا فان الاسلام قد وقف منذ البداية ضد اسلوب كسب المال عن طريق المال دونما جهد بشرى يبذل فى هذا الكسب •

وهذا يعنى ان القيم والافكار التى ارستها تعاليم الاسلام انما تمجد العمل وترى فيه المصدر الاول والاساسى للثروة •

والحقيقـة ان القرآن الكريم لا يكـاد يذكر الايمـان الا مقرونا بلفظ العمل · وهو يؤكد دوما ان قيمة الانسـان فيما يعمل وان جزاءه انما يكون بقدر ما يعمل ··

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ··)
(وأن ليس للانسان الا ما سعى) ·

وللرسول (صلى الله عليه وسلم) عشرات الاحاديث فى الحض على العمـل وتقديره ·· وهو القـائل فى وصـف يد انسان كادح « هذه يد يحبها الله ورسوله » ·

والاسـلام يؤكد ان الانتمـاء لطبقة الاغنيـاء لن يفيد صاحبه شيئا ··

فالاقوياء والاغنياء لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم عند الله شيئا ··

(ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب ان ماله اخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة)

★ ★ ★

والحقيقة ان الاسـلام لم يكتف بذلك ولا بما قدمه مـن اصلاحات اجتماعية اصيلة تحرر المرأة والرقيق وتقضى على العصـبيات القليلة ·· ولا تفرق بين الناس على أسـاس من القبلية أو الجنس أو اللون أو الاصل الطبقى ··

وانما هو يقدم نموذجا أصيلا للفهم الثورى لفكرة الملكية ولموقفه من مشـكلات الفقراء والكادحين ، فالتجربة الثورية

الاولى للاسلام قد حددت موقفا حاسما ازاء الملكية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول :

« الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » ـ (رواه أحمد وأبو داود) • ولست بحاجة الى ان أقرر ان الماء والكلا والنار كانت فى ذلك العصر تمثل أهم مصادر الثروة فى المجتمع (بالجزيرة العربية) •

والموقف من قضية الارض واضح أيضا وضوحا شديدا فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول :

« من كانت له ارض فليزرعها بنفسه أو يمنحها أخاه ولا يؤاجره اياهـا ولا يكريها » أى أن الرسـول (صلى الله عليه وسلم) يسـتبعد الاجارة أو على الاقل لا يرغب فى ذلك لانه يقدس العمل ويراه الباب الوحيد للارتـزاق ، وكذلك حسـبما جاء فى الحـديث الشـريف « لا يؤجـر أحد الا بكد يمينـه » « واطيب الكسب عمل الرجل بيده » (رواه أحمد والحاكم) •

والى جانب هذا الموقف الثورى من الملكية يتخذ الاسلام موقف الدفاع عن الفقراء والمساكين ويتحدث عن نصيبهم فى الاموال ، لا على انه صدقة واحسان بل على انه (حق معلوم للسائل والمحروم) •

ويروى عن على بن ابى طالب قوله : ـ ان الله فرض على اغنياء المسـلمين فى أموالهم ما يسـع فقراءهم ، وما يجهد الفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما يصنع اغنياؤهم ، الا وان الله محاسبهم حسابا شديدا ومعذبهم عذابا اليما ، •

وهذا القول المأثور يستحق وقفة نتأمله فيها . . ففى أموال الاغنياء نصيب للفقراء يسع ما يحتاجون وسبب فقر الفقراء هو ما صنعه الاغنياء ! ..

وقد روى أبو سعيد الخدرى عن الرسول (صلعم) انه قال : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له .. ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له ».

قال أبو سعيد : « فذكر رسول الله من أصناف الاموال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لاحد منا فى فضل » (رواه مسلم) (والفضل هو الفائض عن الحاجة ، والظهر هو الدابة المستخدمة فى السفر أو القتال) .

لست أعتقد اننى بحاجة الى تعليق .



وقد أتى الاسلام بمبدأ بالغ الاهمية ، لو اننا طبقناه وفق ظروف العصر لامكننا ان ندفع بالمجتمع خطوات هامة الى الامام ..

وهذا المبدأ هو مسئولية الحاكم فى الاسلام عن رعيته ، وعن اسعادها وعن ضرورة تدخله لحمايتها متخذا فى ذلك كل الوسائل والسبل الضرورية لهذه الحماية لحقوق الضعفاء والفقراء .

وقد وجد هذا المبدأ الهام عددا من التطبيقات ، حددها الرسول فى حديثه الشريف : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى ربى لم لم تمهد لها الطريق يا عمر ؟! »

وقد روى عن عمر بعد فتح مصر انه قال « لئن عشت ان شاء الله لاسيرن فى الرعية حولا كاملا ، فانى اعلم ان للناس حوائج تقطع دونى ، أما اعمالهم فلا يرفعونها الى ، وأما هم فلا يصلون الى ، فأسرع الى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين .. والله لنعم الحول هذا » .

وقال عمر أيضا « أى عامل ظلم أحدا فبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته ! »

وذات يوم سأل عمر من حوله « أرأيتم اذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت الذى على؟ قالوا نعم ، قال : « لا !! حتى انظر فى عمله ، اعمل بما أمرته أم لا ؟ » .

وفى عصر لاحق كان عمر بن عبد العزيز يبكى فى صلاته فعندما سألته زوجته عن سبب بكائه قال : « انى تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها واحمرها ، فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض وضائع والعارى المجهود والمظلوم

المقهور والغريب الاسير والشيخ الكبير وذوى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الارض واطراف البلاد ، فعلمت ان ربى سائلى عنهم يوم القيامة فخشيت الا تثبت لى حجة فبكيت ! » ٠

* * *

هذه هى الروح التى اراد لها الاسلام ان تسود ٠٠ ولنا ان نتأملها فى صياغتها وفى ظروفها فى مجتمع بدائى فى أول مراحل التطور ٠٠ ولنا ايضا ان نتخيل ماذا تعنيه مثل هذه الافكار والتشريعات لو حاولنا ان نطبق جوهرها وروحها على مجتمع كمجتمعنا المعاصر ٠

واذا كانت هذه هى روح الاسلام وجوهر تعاليمه وأساس تجربته الاولى فان الفتوحات وتطور الاحداث قد أسرع بخلق طبقة مالكة جديدة ٠٠ فالفتوحات امتدت سريعا لتشمل فى أواخر عهد عمر ثلاث مجتمعات زراعية ذات تقاليد شبه اقطاعية راسخة فى مصر والعراق والشام ٠٠

وكان طبيعيا ان تؤثر قوانين وتقاليد هذه المجتمعات على قوانين التجربة الاسلامية الاولى فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة ٠٠ ووجدت الطبقة المالكة فى هذه التقاليد ما مكنها من ان تحرف التجربة الثورية الاولى وان تحول روافد الثروة الى مصلحتها كطبقة ٠٠

ومنذ هذه اللحظة بدأت محاولة لخلق تفسيرات ومفاهيم تمثل مصلحة هذه الطبقات الحاكمة وتحمى هذه المصالح ٠

والحقيقة ان هذه الابعاد الثورية للتجربة الاسلامية الاولى لم تطمس معالمها نتيجة لفقدان المنهج العلمى فى البحث فقط بل ان كثيرين من الكتاب والمؤرخين قد تعمدوا طمس حقائق هذه التجربة وازاحة ملامحها المتقدمة والثورية من الصورة التى رسمت لها ·· متعمدين ان يقدموا للجماهير طوال عصور عديدة من التاريخ صورة تخدم مصالح الرجعية والرجعيين ، ولم يحاولوا ان يقدموا للجماهير فى يوم من الايام تلك الصفحة المشرقة للتراث الاسلامى الاصيل ·

لكن سيطرة هذه الطبقات المالكة والغنية على مصادر السلطة ، وقدرتها على وضع تفسيراتها الخاصة لما جاء به القرآن ·· لا يعنى انها كانت وحدها فى الميدان ·

فقد شهدت هذه المجتمعات صراعا طبقيا عنيفا ، بل ودمويا فى كثير من الاحيان ، وسرعان ما انعكست اثار هذا الصراع فى وضع تفسيرات اخرى فى الفقه الاسلامى ·

وكما حاول الرجعيون أن يفرضوا تفسيرهم ··

بذلت القوى الثورية الكثير من التضحيات والجهود وقدمت أفكارا تمثل حتى الان قبسا من النور يضىء لنا الطريق من أجل فهم ثورى لتعاليم الاسلام ··

وهكذا ، ومنذ اواخر عهد عثمان شهد مجتمع الاسلام صراعا طبقيا انعكس فى ميدان الفكر والتفسير والاجتهاد ·· وكانت هناك باستمرار مواقف وتفسيرات متعددة · تفسير الحاكمين وتفسير القوى الثورية التى تريد ان تحمى التجربة

الاسلامية الاولى وان تطبقها وتطورها وفقا لروح عصرها ..
ولعل ذلك هو الذى دفع على بن ابى طالب الى ان يقول يوم التحكيم : « القرآن حمال اوجه ! » بل ان فتنة التحكيم ذاتها كانت تعبيرا ماديا ودمويا عن هذا الصراع الفكرى

فقد اتفق على ومعاوية على ان كلا منهما سوف « ينزل عند حكم الله وكتابه ، والا يجمع بينهما غيره ، وان كتاب الله بينهما من فاتحته الى خاتمته » فكانت النتيجه مزيدا من الحرب والتمزق والدماء ، ولهذا قال على :

« هذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق وانما يتكلم به الرجال ! »

ولما كان الحكم فى اغلب فترات التاريخ الاسلامى يمثل حكم الفئات الاكثر قوة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فقد استطاعت هذه الفئات وهى فى مراكز السلطة ان تزعم انها تحكم باسم الدين والقران .

لكنها فى الحقيقة كانت تحكم وفقا لتفسيرها لتعاليم الدين والقرآن ، ذلك التفسير الذى تستخدمه لتكبت به اية تفسيرات وافكار أخرى كانت تحاول أن تجد سبيلها الى الظهور .

ومع ذلك فقد شهد التاريخ الاسلامى منذ اواخر عهد عثمان صراعا مجيدا تمثل فى محاولة ثورية لفهم التعاليم الحقيقية التى اتت بها التجربة الثورية الاولى للاسلام ، وظهرت مدارس فكرية واتجاهات متعددة فى باب العقائد والعبادات

والمعاملات ، تعبر فى الحقيقة عن المصالح الطبقية المتعارضة التى تحاول كل منها ان تؤكد مصالحها من خلال فهمها الخاص أو تفسيرها الخاص للدين والقرآن ٠



وكانت بداية الصراع بزعامة الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى ، أحد الصحابة السابقين الى الاسلام وواحد من الذين استوعبوا جوهر الفكرة الاساسية وتبعوها وهى تتطور وتجد سبيلها الى التطبيق على يد رسول الله (صلعم) ٠ فاذا كان رأى معاوية ان الثروة هى ملك الله والحاكم يديرها نيابة عن الله ، لان الخليفة خليفة الله ، ومن ثم فالحساب لله ، والمسئولية أمام الله وحده ، ولا حق للناس فى سؤال أو حساب عن تصرفات الحاكم ، فان أبا ذر يقاوم ذلك الرأى ومن ورائه جماهير المسلمين الفقراء معلنا ان الاموال والثروة ملك الله ، ومن هنا فهى ملك عباد الله جميعا ، فتكون ادارة الدولة لها نيابة عن جموع المسلمين ٠٠ ومن ثم فهى مسئولة عن تصرفاتها تجاههم ٠

واذا كان عثمان قد رفض آراء ابى ذر ونفاه الى « الربذة » فان صوته المدوى قد ظل يلهم الجماهير المسلمة آمادا طويلة ٠٠ لقد ظلت كلمات ابى ذر تشعل لهيب الثورة فى قوائم المجتمع الملكى الاقطاعى الذى أقام صرحه الامويون وترن فى آذان الناس كلماته الخالدة ٠٠

« اذا ذهب الفقر الى بلد قال له الكفر خذنى معك ! »
بل ان ابا ذر يستنهض همم الفقراء ويدعوهم الى الثورة قائلا:

«عجبت لرجل لا يجد فى بيته قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه ؟؟ »

وقوله لمعاوية يعنفه بجرأة بالغة : « يا معاوية لقد اغنيت الغنى وأفقرت الفقير ! » فاذا هدده معاوية قائلا : « خير لك ان تنتهى عما انت فيه ! » أجابه : « والله لا انتهى حتى توزع الاموال على الناس كافة ! » ٠

ويصرخ أبو ذر فى وجوه الاغنياء قائلا : « ان المسلم لا ينبغى ان يكون فى ملكه اكثر من قوت يوم وليلة ، أو شىء ينفقة فى سبيل الله أو يعده لكريم » (ابن الاثير ـ التاريخ جـ ٣ ص ٤٣) ٠

ثم هناك أيضا عمر بن عبد العزيز الذى بادر فور توليه الخلافة الى مصادرة أموال الاسرة الحاكمة (بنى أمية) وادخل الثروة المصادرة الى بيت مال المسلمين باعتبارها «ثروة الامة» لا ثروة الاسرة الحاكمة وقال لمولاه « مزاحم » ٠ ان اهلى اقطعونى ما لم يكن لى ان اخذه ولا لهم ان يعطونيه !» (الكامل لابن الاثير جـ ٥ ص ٣٤) ٠

وعندما ارسل اليه بنو أمية عمته « فاطمة » ليعدل عن هذه المصادرة لاموالهم قال لها :

«ان الله بعث محمدا رحمة ـ ولم يبعثه عذابا ـ الى

الناس كافة ، ثم اختار له ما عنده ·· **فترك لهم نهرا شربهم فيه سواء** ، ثم ولى أبو بكر فترك النهز على حاله ، ثم ولى عمر فعمل على صاحبه فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهرا · ثم ولى معاوية فشق منه الانهار · ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك وسليمان حتى افضى الامر الى وقد يبس النهر الاعظم · ولن يروى اصحاب النهر حتى يعود اليهم النهر الاعظم الى ما كان عليه ! » (الكامل لابن الاثير جـ ٥ ص ٢٤) ·

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بمصادرة ثروات الاسرة الحاكمة من بنى أمية بل انه استدعى « غيلان الدمشقى » وهو من غلاة اعداء بنى أمية ليبيع متاعهم بالمزاد ، فكان ينادى عليه قائلا :

« تعالوا الى متاع الخونة ، تعالوا الى متاع الظلمة » · وكان مما ينادى عليه ، وباعه جوارب خز (حرير) فباعها بثلاثين الف درهم · (باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والامل لاحمد بن المرتضى ص ١٦) ·

كان هذا هو تفسير عمر بن عبد العزيز لتعاليم الدين ·· فلما ذهب واتى من بعده هشام بن عبد الملك حاول ان يقدم تفسيرا معاكسا ، فاعاد الاموال لبنى امية ·· أما غيلان الدمشقى فقد صلب وقتل ! ·

* * *

ومــع اســتمرار الصــراع ظهرت عشــرات من الفرق الاسلامية ، لكل منها تفسيرها الخاص ومحاولتها المتميزة لفهم تعاليم الاسلام ٠٠ ولم تقتصر هذه الخلافات على باب الاحكام والمعاملات بل انها قد امتدت ايضا الى باب العقائد والعبادات

ويروى العالم الاسلامى الاستاذ أمين الخولى فى حديثه عن التطور فى العقائد فى كتابه (المجددون فى الاسلام) كيف كان الخلاف جادا والصراع حادا حول القول بخلق القرآن ، وهو خلاف استمر أجيالا واشتد سنين ، وقطع الخلفاء فيه بأنفسهم رقابا فى الوقت الذى رقت فيه قواهم على حمل السلاح فى فتح أو قتال ٠٠ كما شهد أولئك الخلفاء تعذيب علماء أبرار خلعت اعضاؤهم وكبوا على وجوههم وديست بطونهم بحضرة أولئك الخلفاء ، كما كان يحمل الى أبوابهم علماء عاملون ، من أنحاء دولتهم كمصر مثلا ، وأرطال الحديد على جسومهم وفى أعناقهم ليقولوا بعقيدة القائلين بخلق القرآن ، لانها فيصل الكفر والاسلام ٠٠ ثم رفعت المحنة بعد ما كان ، وترك الناس يعتقدون ما يعتقدون ، فمن قالوا بخلق القرآن فهم مؤمنون ، وان أنكروا خلق القرآن لم يكونوا كافرين » (ص٤٦ ، ٥٠) ٠

ويوضح الاستاذ أمين الخولى كيف امتد هذا الصراع الفكرى الى دروس النحو فاذا قال انســان « شــفى الطبيب المريض » قال المعتزلة انه حقيقة ، وقال السنية انه مجاز بمعنى ان الله هو الذى شفى المريض ! ٠

وهذا تعبير عن الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة حول السببية وأفعال العباد ٠٠ فنفى السببية وانكارها هو ما أثره

أهل السنة فى حين أثر المعتزلة تقرير السببية » . (ص ٥١)

ويمكن لمثل هذا الحديث ان يطول .. فصور الخلاف كثيرة وعديدة ومتشعبة ، والفرق عديدة هى أيضا ، والخلاف بينها حول مسألة واحدة قد يستغرق كتبا بأكملها .

ولكننا فقط نريد ان نوضح كيف ان تعاليم الاسلام لم يكن من الممكن لها ان تفهم فهما واحدا ، وانما باختلاف المجتمعات واختلاف الطبقات واختلاف القوى الاجتماعية كان من الطبيعى ان تظهر مفاهيم مختلفة وان تتصارع وفقا لتصارع المصالح التى أنبتتها .

وهذا الخلاف طبيعى ومنطقى ، فالاسلام ، كدين ودنيا وعقيدة تصلح لكل زمان ومكان ، كان من الطبيعى ان تقتصر دعوته على المثل العليا والمبادىء الكلية وبذلك ترك باب الاجتهاد واسعا على مصراعيه ومفتوحا على الدوام وفقا للزمان والمكان وظروف العصر .

والحقيقة ان الاسلام يحمل فى طياته اسسا للتطور تهيئه لذلك وتعده لتحقيقه فى يسر ودون مصادمة لشىء من تطور الدنيا التى تعيش حوله سواء من الناحية النظرية أو العملية .

ويحدد الاستاذ أمين الخولى أسس التطور فى الاسلام فيقول أنها تتمثل فيما يلى :

١ ــ ان الدعوة موجهة للناس كافة ، وموجهة اليهم فى كل زمان ومكان ، ومن هنا فان حياة الاسلام تتسع « ذلك

الاتساع الذى لا يحدده زمان ولا مكان ، وتكون مواجهته للتغييرات التى لا مفر منها ، بصورها غير المحدودة ، فيكون تغير المناطق جوا وعمارة وحضارة مما يجعل لكل بيئة من هذه البيئات حاجاتها المختلفة ، التى تطلب التدبير والتنسيق مع أصحاب الدعوة الاسلامية الاولى فى الجزيرة العربية بجويها الطبيعى والمعنوى » •

(ص ٣٩ ـ المجددون فى الاسلام)

٢ ـ اقتصاد دعوته فى الغيبيات واراحته العقل منها بتركه التفاصيل •• « فهومثلا يطلب من اتباعه فى الايمان بالالوهية ان يدركوا عن الله انه ليس كمثله شىء ، فلا يخبر عن افعال من افعال البشر •• وهذا الوضوح واليسر فى العقيدة ، لن يدع فرصة للصدام والخلاف قليلا أو كثيرا بين العقيدة ، وبين ما يستطيع الانسان أن يكشفه من سنن هذا الكون وأسرار مخلوقاته لانه متخفف من تلك الغيبيات المبهمة الموهمة » •
(المرجع السابق ص ٣٩ ـ ٤٠)

٣ ـ عدم تورط الاسلام فى كتابه الذى هو أصل أصوله ، فى بيان شىء عن نشأة الحياة على الارض وظهور الانسان وما مر به ذلك كله من ادوار « وراحة الاسلام من هذا التورط تدعه يترك للعلم طريقه ، يخب فيه ويضع معلنا له مقدما انه مستعد لتقبل كل ما يجىء به العلم من ذلك وتقريره دون ان يحتاج الى اطراح ما يثقله ، ظلما

وعدوانـا من الاسـرائيليات التى اقحمت عليه او مـن التفسير المتثاقل الذى جهر اصحاب الاسلام منذ اكثر من الف عام بانه لا أصل له » ٠
(المرجع السابق ص ٤٢)

٤ ـ عدم تورط الاسلام فى شىء من تفاصيل الامم والرسل التى عرض لاحوالها فى ايجـاز او مع بعض التفصـيل بيانا لسنن الاجتماع فى حياة الدعوات والرسالات وكيف تلقاها الناس وكيف قاوموها وكيف تم انتصارها أخيرا ٠ واذا شعر الاسلام بانه يستطيع ان يمضى مع اصحاب التاريخ دون تأزم كما مضى مع اصحاب طبقات الارض دون ازمة وكما مضى مع اصـحاب العلم الطبيعى دون ارتباك فانه ليستطيع ان يتقدم على تطور الحياة منطلقا ٠ وكذلك يستطيع الاسـلام ان يطور نفسه مع هذا العلم المتقدم وان يبيح رجله المتحدث عنه رجلا مؤمنا بالعلم بكل سهولة ومع اقتدار لا يهز شيئا من أساس ما اعتقده هذا المتدين والتزمه »

(المرجع السابق ص ٤٣ ـ ٤٤)

٥ ـ اقتصاره فى تنظيم الحياة العملية بالعبادات وغيرها ـ بعد تيسـيـر الحيـاة الاعتقـادية ـ على الامـور الكلية والاصول العامة والاصول الشاملة دون التفاصيل المفردة والجزئيات الصغرى ٠

وهكذا فان الاسلام بطبيعته هذه يدفع الناس الى استعمال

قواهم الانسانية وطاقاتهم البشرية من اعتبار شىء بشىء واثبات حكم المثيل لمثيله والانتفاع بالنص فى ذلك دون تجميد ولا وقوف بل مع الجد الواجب فى الاجتهاد للاستنباط ..

(المرجع السابق ص ٤٤)

٦ ـ جعل الاجتهاد اساسا للحياة الاسلامية ، وما الاجتهاد الا الانطلاق مع الحياة وفاء بجديد حاجتها .

« ولا تغطى تلك الحاجة وتدفع تلك التطورات الضرورية الا بأن يكون فى المجتمع من يضمن مسايرة الفكرة للحياة ووقايتها من عوادى الجمود وذلك بالتجديد الذى لا يكون مع منطق الحياة والواقع الا تطورا »
(المرجع السابق ص ٤٥)

وهكذا فان الاسلام دين التطور الذى لا يعرف الجمود والذى يدعو الناس باستمرار الى الاجتهاد فى شئون دينهم ودنياهم والى تحكيم العقل كوسيلة للمعرفة ولمواكبة كل جديد فى الحياة .

وها هو الامام الشافعى يؤكد « ان التجربة هى العقل الحق » . بل انه قد حرص على أن يؤكد لتلاميذه ، « اذا ذكرت لكم ما لم تقبله عقولكم فلا تقبلوه فان العقل مضطر الى قبول الحق ! » .



هذه لمحة سريعة عن التعاليم الاسلامية الحقة .. وعن التجربة الاسلامية الاصيلة ولكى تكتمل الصورة فلا بد من لمحة سريعة أيضا عن الاشتراكية وعن قوانينها العلمية ولنبدأ أولا بهذا السؤال ..

وما هى الاشتراكية .. ؟ والسؤال سهل .. فان أبسط ما يجيب عليه الانسان الاشتراكى هو ان يحاول ان يجد تعريفا للمبدأ الذى يؤمن به . لكن الصعوبة فى الاجابة على هذا السؤال تمكن فى ان الاشتراكية نظام دنيوى شامل يمس كافة جوانب الحياة .

فاذا حاولنا تعريفها اقتصاديا قلنا أنها نظام يرفض شكل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج الرئيسية ، ويؤمن بملكية الدولة ـ دولة الشعب ـ لهذه الوسائل .

واذا حاولنا ان نعرفها سياسيا فاذا انها نظام يؤمن بأن السلطة يجب ان تكون فى يد الشعب الكادح كله وليس فى يد حفنة أو طبقة أو جماعة .

واذا اردنا تعريفا اجتماعيا لها ، فهى النظام الذى يؤمن بحق الانسان فى العمل وحقه فى أن يجنى ثمار عمله وعلى قدر ما قدم من عمل دون أن يسمح لاى فرد بأن يستغله وأن يعيش على ثمرات كده .. وهى النظام الذى يؤمن بأن الانسان هو أثمن ما فى الوجود وأنه يتعين على الدولة ان تهيىء للمواطنين جميعا وعلى قدم المساواة العلم والرعاية والخدمات التى تمنحه فرصة العيش الانسانى .

واذا نظرنا من ناحية التاريخ فهى مرحلة من مراحل تطور المجتمعات تلى النظام الرأسمالى وتبنى على انقاضه ٠ فالمتناقضات الكامنة فى المجتمع الرأسمالى ذاته تؤكد حتمية عجزه عن الوفاء بحاجات التقدم وحاجات الجماهير وتؤكد عجزه عن ان يجد حلا أصيلا لهذه المتناقضات الامر الذى يؤكد حتمية الحل الاشتراكى ٠ ثبتت لديه شرعية الدعوى -

والحديث عن المتناقضات فى المجتمع الرأسمالى قد يتطلب تطويلا عن استيفائه عجالة كهذه لكننا سنكتفى بضرب مثال واحد ٠٠ عن تطور علاقات الانتاج فى المجتمع ٠

ففى المجتمع الاقطاعى كان الصانع الحرفى يعمل بيديه ويمتلك الاته ويمتلك انتاجه ، وقلما كان يستخدم عمالا بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، وعلى اية حال فان هؤلاء الصبية أو العمال الذين كانوا يعملون لديه ، أو بالدقة يتدربون عنده ، كانوا يأملون ان يصبحوا أسطوات فى يوم من الايام وكثيرا ما كانوا يحققون بغيتهم هذه ٠

فلما جاء القرن التاسع عشر واخترعت الالات الحديثة وسيطر الرأسماليون عليها واستطاعوا ان يستقطبوا الثروة كلها فى ايدى حفنة قليلة من الافراد ٠٠ وادى تقدم التكنيك وتقدم الالة الى انحصار ملكيتها فى ايدى اصحاب الثروات الضخمة نتج عن ذلك كله ظاهرة هى :

ان الثروة والريع والملكية تتركز وتتمركز باستمرار فى أيدى قليلة هى الرأسماليون بينما العمل والعرق والكدح من نصيب مجموع العاملين ٠

وهذا هو احد المتناقضات الاساسية فى المجتمع الرأسمالى ·· التناقض بين العمل الجماعى والملكية الفردية لادوات الانتاج ·

وكلما ازداد المجتمع الرأسمالى تقدما ·· كلما ازداد تركز الثروة فى ايدى الرأسماليين ومن ثم ازداد هذا التناقض حده ·

واذا سألنا أنفسنا ما هو حل هذا التناقض ·· فالجواب بسيط ··

العمل الجماعى يجب ان تقابله ملكية جماعية ··

وبدون ذلك سيظل العمال الذين لا يملكون يصارعون الملاك الذن لا يعملون ·

وليس هذا هو التناقض الوحيد فى الرأسمالية لكننى أكتفى به لاوضح كيف ان الاشتراكية ليست انتقاءا اختياريا بقدر ما هى طريقة تقود اليه حتما القوانين الاجتماعية ، وطبيعة المتناقضات الكامنة فى المجتمع الرأسمالى ذاته ·

ولم يكن اكتشاف هذه المتناقضات مصادفة ولا بغير بحث دقيق ··

فالثورة الفرنسية وغيرها من الانتفاضات التى شملت أوروبا الاقطاعية والتى استخدمت فيها الجماهير ، وجماهير الكادحين على وجه التحديد ، سلاحا لقهر الملكية والاقطاع ·· هذه الثورة التى مكنت الرأسمالية من السلطة تحت شعارات

براقة (الحرية .. الاخاء .. المساواة) لم تمض عليها سوى سنوات قلائل حتى اثبتت ان حريتها واخاءها ومساواتها ليست سوى لافتات تحمى استغلالا بشعا وقهرا طاغيا ينظمه الرأسماليون ويوطدون اركانه .

ولم تمض سوى سنوات قلائل حتى أكتشفت الجماهير الكادحة وطلائعها من المثقفين والثوريين ان هذا الاستغلال لن يقضى عليه بغير ثورة جديدة ..

ومن خلال هذا الصراع الدامى والكفاح المنظم والبحث الجاد حول أسباب الاستغلال وحول وسائل سيطرة الطبقة الرأسمالية والقوى التى تمنحها القدرة على التحكم والاستغلال

ومن خلال هذا كله بدأت مجموعة من القوانين العامة تتكشف لتحدد معالم الصراع الطبقى وتاريخه وتحدد صورة تطور المجتمعات ودور العوامل الاقتصادية فى هذا التطور وتحدد القوانين التى تحكم هذا التطور والتى تحدد اشكال الصراع حولها .

والحقيقة ان هذه القوانين ليست من صنع أحد .. فهى قوانين موضوعية كانت وستظل تعمل عملها . لكن القيمة الاساسية للفكر الاشتراكى العلمى ترجع الى اكتشافه لهذه القوانين ،وصياغتها صياغة ملائمة وعلمية .. وكما ان هذه القوانين العامة ليست من صنع أحد فهى ليست ملكا لاحد .. بل تراث انسانى عام .. يتعين على كل مخلص لقضية التقدم الانسان ان يستفيد منها وان يهتدى بها فى نضاله .

وفى مصر ثارت قضية الاشتراكية أيضاً ليس على أساس انتقاء اختيارى وانما كطريق حتمته طبيعة ظروف مجتمعنا ..

فبعد ثورة يوليو وبعد أن اعلنت بلادنا رفضها لطريق التبعية للاستعمار وتصميمها على المضى فى طريق الاستقلال الكامل .. وفى نفس الوقت عزمها على أن تقضى على التخلف والفقر الذى غرسه الاستعمار فى أرض بلادنا .

كانت هذه الخطوة بداية تتابعت على اثرها خطوات اخرى كل منها ضرورية وحتمية ومنطقية .

فالقضاء على التخلف يتطلب استثمارات سنوية كبيرة ، وهذه الاستثمارات امن للمجتمعات الرأسمالية الغربية ان تحصل عليها كنتيجة للاستعمار .. أو كنتيجة لتراكمات أرباح خيالية حققت على حساب شقاء العمال وكدهم .

غير أن ظروف العصر لم تعد — كما يقول ميثاقنا الوطنى « تسمح بشىء من ذلك .. ان التقدم عن طريق النهب والتقدم عن طريق السخره لم يعد امرا محتملا فى ظل القيم الانسانية الجديدة » .

(الميثاق الوطنى ، الباب السادس . ص ٧٢)

وهكذا فان تطور نظام الانتاج فى المجتمع الرأسمالى والتقدم الهائل فى الالات ووسائل الانتاج وضخامة الاحتكارات العالمية وسيطرتها لم تدع أمام البلاد المتخلفة اذا ارادت ان تسلك سبيل التنمية الرأسمالية سوى احد طريقين .

أما حماية جمركية عالية تتحمل الجماهير عبئها ..

أو تبعية كاملة للاحتكارات العالمية الامر الذى يعنى تهديد الاستقلال الوطنى والعودة لسياسة الخضوع للاستعمار ..

وليس بامكان انسان شريف ان يقبل سلوك أى من هذين الطريقين .

ليس هذا فحسب بل ان ضخامة المشاريع التى تتطلبها خطة التنمية لا يسمح مطلقا بتركها للجهود الفردية التى لا يحركها غير دافع الربح .

ومن ثم فان عملية التقدم والتنمية اذا اردنا لها ان تسير فى طريق التطور المستقل والمتخلص من كل أشكال التبعية للاستعمار تتطلب كما يقول الميثاق الوطنى ثلاثة شروط .

١ ـ تجميع المدخرات الوطنية .

٢ ـ وضع كل خبرات العلم الحديث فى خدمة استثمار هذه المدخرات .

٣ ـ وضع تخطيط شامل لعملية الانتاج .

وهكذا يمضى الميثاق الوطنى مؤكدا

« ان ذلك يضع نتيجة محققة أمام ارادة الثورة الوطنية لا يمكن بغير الوصول اليها ان تحقق اهدافها وهذه النتيجة هى ضرورة سيطرة الشعب على كل ادوات الانتاج وعلى توجيه فائضها طبقا لخطة محددة .

ان هذا الحل الاشتراكى هو المخرج الوحيد الى التقدم الاقتصادى والاجتماعى وهو طريق الديمقراطية بكل اشكالها السياسية والاجتماعية » •
(الميثاق ص ٧٤) •

وهكذا فان اللجوء الى الحل الاشتراكى كان ضرورة حتمية امام الدول المتخلفة التى تحاول ان تقدم لجماهيرها حياة أفضل •

واذا كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تفرض هذا الحل •• فان الدول المختلفة لا تقبله مغمضة العينين ، بل تأخذ بقوانينه العامة وتضعها فى التطبيق وفقا لظروف كل منها ••

ان الفكر الاشتراكى العلمى فكر متعدد الجوانب كما قلنا وليس لزاما على الاشتراكى ان يأخذ به كله أو يتركه كله •• وليس لزاما عليه ان يأخذ بوسيلة معينة لتحقيق أهدافه ••• وليس لزاما عليه ان يتقيد بتجربة نجحت فى مكان لكنها قد لا تنجح فى مكان اخر ••

والذى لا شك فيه أن لجوء الدول النامية الى مفهج الاشتراكية العلمية ليس مجرد تأكيد لصحة هذه النظرة لكنه سبيل اكيد لتطويرها واثرائها بعشرات من التجارب والافكار والاراء التى تنبع من تطبيق القوانين التى اكتشفها هذا الفكر على الواقع الحى لكل بلد من البلدان ••



اننا ونحن نخوض معركة البناء الاشتراكى فى بلادنا يتعين علينا ان نستخدم هذه القوانين العامة كمنهج يهديئا فى العمل الثورى ، لكننا نستخدم هذه القوانين بعد ان نضيف اليها مضموننا قوميا وروحيا يتمشى مع تراثنا القومى والدينى مما يمكن هذه القوانين من ان تفعل فعلها على أسس موضوعية وطبيعية ، ومما يمكن لها ان تصبح الهاما حقيقيا واداة فعالة لتعبئة ملايين الجماهير ٠

والان وبعد هذا العرض لاسس التطور فى الاسلام ، وللاسلوب الذى سننهجه فى فهم تعاليم الاسلام ، وبعد العرض السريع لاسس الفكر الاشتراكى ، فانه من المفيد ان نعرض هنا لموقف الاسلام من بعض القضايا الاساسية التى تلقى ضوءا على جوهر التعاليم الاسلامية الحقة ٠٠

ولنبدأ بقضية نظام الحكم وشكل الدولة واسلوب اختيار الحاكم ومسئولياته ، وهى فى اعتقادنا واحدة من القضايا الهامة والاساسية لاى مجتمع من المجتمعات ٠٠ وهى احدى المسائل التى ثارت حولها خلافات كثيرة وعنيفة ٠٠

وأول ما يلفت النظر فى هذا الموضوع هو ما يشير اليه الدكتور محمد احمد خلف الله فى مقاله بعنوان (النظام السياسى الاسلامى للدولة القومية) اذ يقول : « ان النظام السياسى الاسلامى لا يعتبر من المقدسات التى نقف امامها عاجزين حيارى لا ندرى ماذا نفعل مع هذه التحديات التى تجابهنا بها هذه الحضارة العلمية الصناعية المعاصرة »
(مجلة الكاتب ــ عدد ابريل ١٩٦٦ ص ٦٤) ٠

وبعد ان يتحدث عن طرق اختيار الخلفاء الراشدين ويؤكد انها ليست ملزمة ، وانها لا تصلح كأساس للنظام السياسى الحالى .. وذلك لسببين هامين هما ان طرق الاختيار متعددة ، ولم تنهج أسلوبا واحدا ، وان هذه الطرق كانت من صنع البشر وليس للقرآن الكريم أو الحديث الشريف أثر فى قيامها .

وبعد ان يوضح د. خلف الله ان القرآن الكريم والسنة الشريفة لم يتعرضا مطلقا لاسلوب اختيار الحاكم ولا شكل الدولة الامر الذى دفع الناس الى اختيار طرق متعددة ومختلفة يقول ان « ترك القرآن الكريم لهذه المسألة لا يفسر أبدا الا على أساس واحد ، هو ان العليم الحكيم قد قدر ان من المسائل التى يجب ان يعالجها الناس بأنفسهم وليس يلزم ابدا ان يكون للقرآن الكريم موقف منها أو رأى فيها .. لقد تركها القرآن ، وليس يجيز ابدا ان نذهب الى ان هذا الترك لم يكن مقصودا . وقد قرر سبحانه تركها للناس وقدر الى جانب هذا الترك ان يكون الامر شورى وان يكون التفكير جماعيا » .

أما شكل الشورى وطريقتها فقد تركت لتتحدد وفقا لكل عصر ومكان ويورد الامام الشيخ محمد عبده فى تفسير المنار شرحا لفكرة الشورى فيقول :

« وشاورهم فى الامر العام الذى هو سياسة الامة ، فى الحرب والسلم ، والخوف والامن ، وغير ذلك من مصالحهم

الدنيوية ــ أى دم على المشاورة وواظب عليها كما فعلتقبل الحرب فى هذه الوقعة ــ (غزوة احد) ــ وان اخطأوا الرأى فيها ، فان الخير كل الخير فى تربيتهم على المشاورة دون العمل برأى الرئيس وان كان صوابا »

(المقال السابق ص ٦٧)

وهكذا فان الاسلام يترك للمسلمين أن يحددوا ، وفق ظروف عصرهم ، أسلوب الحكم وشكل الدولة ، قاصرا تعاليمه على مبدأ كلى هو « الشورى ومعارضة الاستبداد » تاركا تفسير هذا المبدأ الكلى وتطبيقه للفكر المتجدد وفقا لتطور العصر وتقدمه ٠

★ ★ ★

فاذا انتقلنا الى قضية هامة أخرى وهى قضية الاموال والملكية ٠٠ فاننا نجد ان هناك آيات كريمة عديدة تناقش هذا الموضوع ٠٠ فهناك قوله تعالى :

(وآتوهم مال الله الذى اتاكم) وقوله (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ٠
وقوله تعالى :

(وما اموالكم ولا اولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا ٠ ٠)

وقوله تعالى :

(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ٠

وقوله تعالى :

(ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب)

وهناك أيضا السنة الشريفة ، وقد اشرنا فيما سبق الى بعض أحاديث الرسول الكريم عن اشتراك الناس فى النار والماء والكلأ ٠٠ لكننا سنهتم هنا بالتطبيق العملى الذى مارسه الرسول الكريم (صلعم) وبعض الخلفاء من بعده ٠

والحقيقة ان الرسول قد اتخذ حلولا متعددة فى قضية الاموال ، فاذا تأملنا موقفه من مسألة « الارض » وهى التى تمثل الجانب الرئيسى فى ثروة ذلك المجتمع ، نجد ان الرسول قد خصص بعض المراعى ، وهى أرض النقيع بالمدينة ، لتكون مراعى عامة يرعى فيها المسلمون أبلهم جميعا وعلى السواء ٠

فلما جاء عمر بن الخطاب جعل أرضا فى « الزبدة » مراعى عامة لكل المسلمين ، فجاءه أهل هذه الارض طالبين ردها اليهم ، وقالوا له يا أمير المؤمنين : « انها بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية واسلمنا عليها فى الاسلام ، علام تحميها ؟»

(أى تجعلهـا عامة) ، فأطرق عمر ثم قال : « المال مال الله ، والعبـاد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه فى سـبيل الله ما حميت من الارض شبرا فى شبر » .

(رواه احمد . وذكره أبو عبيد القاسـم بن سـلام فى « الاموال » ص ٢٩٨)

وهناك أراض اخرى فتحت بحد السيف ثم وزعت على جيوش المسلمين .

وأرض ثـالثة كارض خيبر أقر زارعوها فيهـا على ان يدفعوا الخراج .

فلما جاء عمر بن الخطاب وفتحت فى عهده ارض العراق رفض ان يوزعهـا على الفاتحين كما فعل الرسـول الكريم ، واصطدم فى ذلك مع عدد كبير من الصحابة الذين أصروا على توزيع الارض على فاتحيها كما فعل الرسول .

وكان يواجههـم قائـلا : ان الظـروف قـد تغيرت وان المسلمين لن يفتحوا أرضا أغنى من هذه الارض ، ولهذا فانها يجب ان تظل ملكا لبيت مال المسلمين لينفق منها على الثغور والجيوش .. وقال انها بذلك ستبقى ملكا للمسلمين الحاليين وللاجيال القادمة .

وقد ميز عمر بين نوعين من الارض .. ارض أقر فيها زارعوها فى نظير دفع الخراج .. أما النوع الاخر وهى الارض التى كانت مملوكه للقواد وغيرهـم من كبار رجـال الـدوله

المفتوحة فقد صودرت أملاكهم وسميت « الصفايا » وكانت تؤجر للناس ويدفع ايجارها لبيت المال مباشرة .

ومن كل ذلك نرى ان الاسلام ، مهتديا بالمبدأ الاساسى الذى سار عليه دوما ، لم يحدد شكلا معينا للملكية .. لكنه تركها حسب ما يراه الناس وفقا لظروفهم ومصلحة المسلمين .

غير أننا لا نود للقارىء ان يظن ان الاسلام لم يكن له موقف من قضية الاستغلال .. بل ان الاسلام قد اتخذ في وضوح تام موقفا منحازا للجماهير غير المالكة .

فقد وقف ضد تركيز الثروة .. سواء أكانت فى الارض أو الاموال .. ولنقرأ الآية الكريمة .. (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

ويرى سيدنا على بن ابى طالب ان الكنز هو المال الزائد عن الحاجة وقدر حاجة الانسان بأربعة آلاف درهم وما زاد عليها فهو كنز .. وهو حرام .

وآية كريمة أخرى (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (والعفو هو ما زاد عن الحاجة)

وآية كريمة ثالثة : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير) .

ولنتأمل هنا قوله تعالى (مما جعلكم مستخلفين فيه) ٠
أى ان المال مال الله والناس وكلاء فيه ٠

والمفسر الكبير الزمخشرى صاحب تفسير القرآن المعروف (بالكشاف) يخاطب حائزى الاموال بقوله : « ان الاموال التى فى أيديكم انما هى أموال الله بخلقه وانشائه لها وانما مولكم اياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى اموالكم فى الحقيقة وما انتم فيها الا بمنزلة الوكلاء والنواب فانفقوا منها » ٠
(الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٤)

فاذا انتقلنا الى تفسير معاصر لهذه الاية الكريمة نجد الاستاذ امين الخولى يقول أن القرآن « لا يعطف على الملكية الفردية ، ويكاد ينكرها مثل قوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) وقوله : (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فالمال مال الله لا مال الناس »
(أمين الخولى ٠ كتاب « فى أموالهم » ص ٣١) ٠

ويتحدث أمين الخولى أيضا عن الملكية فيقول ان امرها « لو صار عموما محضا واشتراكا كاملا ونسيانا للذات تماما لما رأى فيه القرآن بأسا ولا حال هدية دونه »

(فى أموالهم ص ٣٣) ٠

بل ان الشيخ أمين الخولى يفسر أن المال مال الله قائلا :
« حق الله هو فى لسان اليوم حق المجتمع »
(فى أموالهم ص ٤٠)

أى ان المال مال المجتمع وملكٌ للامة .

والامــام الغزالى يتحدث عن ان المتصــوفة المســلمين يشبهون المال بالماء ويجعلون تناول المال مثل شرب الماء واذا كان « المــاء لا يشرب منه اكثر من الحــاجة فأقوياء النفــوس الصالحون لا يشربون من الماء أكثر من حاجتهم ، ولا يجمعون الماء فى القرب والروايا يدورون بها معهم ، بل يتركونهــا فى الانهار والبرارى للمحتاجين اليه »

(احياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٦٦) .

وهناك فيلســوف اســلامى آخر هو السيد جمال الدين الافغانى الذى يتحدث صراحة عن الاشتراكية معلنا بقوة « ان أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالاسلام هم اكبرالصحابة وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية من أكابر الصــحابة أيضا » .

(خاطرات جمــال الدين لمحمد باشــا المخزومى طبعــة بيروت ١٩٣٠) .

ونحن اذ نســوق هذه الامثلة جميعــا نريد ان نوضــح للقارىء مسألتين :

أولاهما : ان القرآن والسنة لم يحددا شكلا واحدا محددا من أشكال الملكية يتعين على المسلمين الالتزام به ، بل

الملكية من ابـواب المعـاملات التى يقول الرسـول الكريم فيها « المعاملات طلق والعبادات اذن » ٠

وثانيتهما : ان الاسلام والرواد الاول للتجربة الاسلامية وكثيرا من فقهاء المسلمين على مر العصور يتخذون موقف المساندة للجماهير غير المالكة ، ولفكرة ان الملكية ليست تحكما بيد فرد ، وانما هى وظيفة اجتماعية يجب ان تسـخر أو تنظم لخـدمة المجمـوع وفقـا لضرورات العصر وظروفه ٠

وبهذه الروح وبهذه الافكار الكلية العامة التى تسندها مثل وقيم ومبادىء تحض على فعل الخير ٠٠ وعلى الاهتمام بمصالح الجماهير ٠٠ يمكننا ان نحدد طريقنا اذا ما واجهنا مجتمع رأسمالى معاصر تعيش فيه فئة قليلة لا تتعدى ½ ٪ أو ١٪ متحكمة فى كل مراكز الثروة والجاه والنفوذ ٠٠ ومستخدمة نفوذها هذا لستحوذ باسـتمرار على كل خيرات المجتمع ٠٠ الامر الذى يؤدى الى ان يزداد الاغنياء غنى ويزداد الفقـراء فقرا ٠

ومع التطور فى اسـتخدام العلم والتكنيك الحديث فان سيطرة المجتمع على مصادر الثروة والقوة فى المجتمع سوف يؤدى الى احتكارها لمصائر المجتمع وسبل عيشه بل انها تحول المجتمع كله الى جهاز يعمل فى خدمتها ولخدمتها ٠

بل ان ذلك يمتد أيضا على النطاق العالمى كله ٠٠ فنشهد اليوم تلك الاحتكارات العالمية التى تستولى على ثروات الشعوب

الفقيرة وتحتكر مصادر رزقها وتحاول ان تجر العالم كله الى مهالك خطيرة تحقيقا لمصالحها الانانية ٠

والغريب ان جماهير المسلمين فى كل انحاء العالم هى الضحية لهذا الاستغلال وهى التى تعانى من وطأته وتعيش فى حالة من الفقر والتخلف لا يمكن لدينها ان يرضاه ٠

والان وعلى ضوء كل ما سبق اذا سألنا أنفسنا سؤالا محددا نقيم به كل ما يجرى الان على ارض بلد مسلم هى مصر حيث يجب ان تقضى على الملكية المستغلة وتمنح للجماهير فرصة أن تبنى حياتها ومستقبلها وتستحوذ الدولة على مصادر الثروة الرئيسية لتوجهها لزيادة الدخل القومى ولخير المجموع ٠

الا يكون كل ذلك امتدادا أصيلا وصريحا للتراث الاسلامى الحقيقى ولجوهر تعاليم الاسلام ٠

ان ما قلناه فى صدر هذا المقال يؤكد ان التجربة الثورية الاولى وتعالم الاسلام الكلية قد وضعت من القواعد والتجربة ما اذا طبق على ظروف المجتمع الراهن فى بلادنا لما عنى سوى طريق البناء الاشتراكى ٠٠



ونتحدث بعد ذلك عن موضوع هام اخر هو موضوع علمانية الاسلام ٠٠

وليس المراد بعلمانية الاسلام هو ان الدين الاسلامى يتخذ من العلم موقف التمجيد والثناء فهذا معروف وواضح ٠ ولكن المراد به هو ان الدين الاسلامى قد أوجد السبيل الشرعى

لان يتواءم وعلى الدوام مـع العلم والمكتشـفات والمنجـزات العلمية ٠

ولقد رأينا من قبل كيف ان تعـاليم الاسـلام كما يقـول الاستاذ أمين الخولى لم تتورط فى بيان شىء عن نشأة الحياة على الارض وظهور الانسان وما مر به من اطوار ٠٠ واكتفت بحقائق كلية بعيدة عن التفاصيل وبعيدة عن ان تضع المؤمن فى مجابهة الحقائق والمكتشفات العلمية ٠

بل ان الدين الاسلامى الحنيف يرى كما يقول الشـيخ سـعاد جلال فى مقال قيم له حول هذا الموضـوع « ان علاقة الانسان بالكون خاضعة لفعل النواميس الكونية تقديرا وتشريعا وان وجود الانسان وافعاله الارادية محكومة بهذه النواميس الطبيعية المحيطة بحياته والتى من شانها ان تبقى مع استمرار وجودة وان تجدد المجال لحاجات نفسه ٠٠ اى ان الله لا يشرع لعبـاده شرعا أو يلزمهم بتكليف فيكون منافيا لمقتضـى هذه النواميس وحكمها فى حياة الفرد أو حياة المجتمع الذى يعيش فى اطاره » ٠

(مجلة الكاتب عدد سبتمبر ١٩٦٥ ص ٥٣)

وتعبيرا عن هذا الموقف يؤكد الفقيه الاسـلامى شمس الدين بن القيم « ان شرع الله لا ينافى قدرة الله » ومعناه ان الله لا يشرع لعباده من الاحكام الا ما كان متفقا مع القوانين الطبيعية التى تحكم نظام الكون ٠

علمانية الاسلام اذن تعنى ان عقيدة المسلم لا تقوده فى تناقض مع قوانين الطبيعة وسنن الحياة بل هى تتطور لتتوافق مع هذه القوانين والسنن ٠

وفى القرآن الكريم اكثر من دليل على وجود هذه القوانين الطبيعية الازلية التى توجد وتؤثر بمعزل عن ارادة الافراد ٠ وكما يقال عنها فى الادبيات الاشتراكية « القوانين الموضوعية التى تحكم سير وتطور المجتمعات » ٠

ولنتأمل هذه الايات الكريمة ٠٠

(سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا)

وقوله تعالى
(فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا)
وغير ذلك كثير من الايات التى تدل على اعتبار القرآن

الكريم للسنن التاريخية والطبيعية ونفاذ احكامها على حياة الافراد والجماعات فى الماضى والحاضر والمستقبل ٠٠

ثم ان القرآن الكريم قد اشار فى كثير من آياته الى ربط العلل بالمعلولات والنتائج بالاسباب ٠
ولنتأمل هذه الاية الكريمة : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) ٠

أى ان التغير لا يأتى جزافا ٠٠ ولا يغير سبب لكنه ينبع من علة اساسية هى ارادة التغيير الكامنة فى الناس وعملهم

الانسانى من أجل هذا التغيير وكذلك قوله تعالى (ذلك بان الله **لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم** فارادة التغيير لدى الانسان هنا تتناسب مع خلق الله للتغيير طردا وعكسا .

وهكذا يتضح لنا ان الاسلام يتخذ موقفا علميا خالصا ، فهو يؤمن بالعلم وبالقوانين الطبيعية التى تحكم سلوك الافراد والمجتمعات . وهو يؤمن ان التغيير مرتبط بأسبابه الموضوعية والمنطقية التى يترتب عليها ..

ولنتأمل قول فقيه اسلامى اخر هو جمال الدين الافغانى وموقفه من العلوم الطبيعية ، بل وموقفه من نظرية داروين وهى التى أثارت ولا زالت تثير كثيرا من الجدل حول موقف الدين منها .

سئل الافغانى عن قول المعرى :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد به ما عناه داروين بنظرية النشوء والارتقاء **فقال :**

«لا أغالى ولا ابالغ اذا قلت : ليس على سطح الارض شىء جديد بالجوهر والاصول .. أما مقصد ابى العلاء فظاهر واضح ليس فيه خفاء ، فهو يقصد النشوء والارتقاء ، مهتديا بما قاله العرب قبله بهذا المذهب ، اذ قال أبو بكر بن بشرون فى رسالته لابى السمح ، عرضا ، فى بحث الكيمياء : « ان التراب يستحيل نباتا ، والنبات يستحيل حيوانا ، وان ارفع المواليد هو الانسان (الحيوان) .

وهو اخر الاستحالات الثلاثة وارفعها ٠٠ وان ارفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات ، وهو ادنى طبقات الحيوان ، سلسلة تنتهى عند الانسان » ٠

(جمال الدين الافغانى ٠ خاطرات جمال الدين)

هذا هو رأى واحد من اشهر فقهاء المسلمين فى التاريخ الحديث حول موقف الاسلام من العلوم الطبيعية والاكتشافات العلمية وهو يوضح بما لا يدع مجالا للشك ان الدين الاسلامى يؤمن بالعلم وبتطوره وبمنجزاته ٠

بل ان الشيخ سعاد جلال يقول فى مقاله الذى سبقت اشارتنا اليه وهو يناقش موقف الدين الاسلامى من النظريات العلمية ٠٠ « ان النظريات العلمية الثابتة ثبوتا قطعيا لا يمكن ان تتصادم مع نص قطعى فى القرآن ذلك لان القرآن الكريم قد اكتفى بايراد كليات عامة ولا يخوض فى التفاصيل » ثم يمضى الشيخ سعاد جلال مؤكدا انه اذا حدث تصادم بين نظرية علمية وبين نص قابل للتأويل فان علينا ان نؤول النص بما ينفى اى تناقض مع العلم الحديث ، ويضرب مثالا لذلك نظرية كروية الارض ، فقد اثبت العلم صحتها ثبوتا قاطعا وهناك قوله تعالى (والله جعل لكم الارض بساطا) وقد أول علماء الاسلام هذا القول الكريم « على ان المراد به كون الارض ممدودة ممهدة لمعيشة الانسان ، وذلك لا ينفى ان تكون الارض فى واقع تكوينها كروية » ٠

(الكاتب ٠ المقال السابق ص ٥٦) ٠

من ذلك يتضح لنا كيف ان الاسلام دين يؤمن بالعلم ويهيء نفسه لكي يواكب كل تقدم علمي وكل اكتشاف حديث ٠

وفوق ذلك فهو يؤمن ـ وهذا هو المهم ـ بوجود قوانين طبيعة وأزلية تحكم سير المجتمعات ، وان ايمان الانسان بعقيدته الاسلامية لا ينفي ، بل يؤكد ، ضرورة ايمانه بهذه القوانين وعمله وفق هداها ٠

ويقول الدكتور عبد المنعم خلاف في كتابه (المادية الاسلامية وأبعادها) تحت عنوان « مادية علمية ربانية » « من أسلحتنا التي ينبغي أن نستعملها في المعركة الفكرية المعاصرة ان نبين اننا نعتنق نفس المذهب العلمي المادي الذي تقوم عليه الحضارة العلمية الحالية والذي تفتتن به المادية الالحادية الشرقية والغربية ، لان ذلك المذهب هو الدعامة الكبرى لديننا ولانه استاذ عقولنا وباب معرفة ربنا ودليلنا الهادي الذي يسوقه القرآن امامنا في بحثنا عن الله واسراره وصفاته وعن علاقتنا نحو البشرية وبالكون المادي » ٠ (ص٥٥)

وهذا الموقف بالغ الاهمية لانه يحكم موقف المسلم من تلك القوانين الطبيعية التي ظلت تعمل طويلا وتحكم سير المجتمعات حتى اكتشفتها نظرية الاشتراكية العلمية ودعت الناس الى تفهمها والسير على هداها ٠٠

ولعل خير كلمة توضح موقف الشريعة الاسلامية من العلم والعقل هي قول الامام الشاطبي « الشريعة لا تنافي قضايا العقول » ٠

من كل ما سبق يتضح لنا ان الاسلام فكر ثورى متجدد يصلح لكل زمان ومكان ·· يتفاعل مع الاكتشافات العلمية الطبيعة والاجتماعية ولا يضع نفسه فى تناقض مع حقائق العلم ولا مع واقع الحياة ··

ويتضح لنا أيضا أن الفكر الاشتراكى العلمى قد استطاع ان يكشف وان يصوغ مجموعة من القوانين العامة والطبيعية التى تحكم سير المجتمعات وتطورها ··

ولقد رأينا كيف ان ديننا يؤكد وجود مثل هذه القوانين وضرورة فهم الانسان لها وعمله بمقتضاها ··

***

من هذه النقطة سنبدأ فى مناقشة قضية هامة هى مسألة الحكم بالقرآن ·· تأكيدا لقوله تعالى ، (ومن لم يحكم بما انزل فأولئك هم الكافرون ··) وقوله تعالى (الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان)

ويقدم الفقيه ـ الاسلامى ابن القيم تفسيرا لهذه الاية الكريمة ، يقول : « الميزان هو العدل الفطرى الموجودفى نفوس البشر » ·

ويقول ان على الفقيه « ان يعرف الواجب (أى حكم الشرع) والواقع » واستنادا الى ما سبق ان ذكرنا من أن الاسلام قد أتى بكليات عامة لكل شئون الحياة ، فان التفاصيل متروكة للانسان يتلمسها من مصادرها المختلفة ويرجع فيها

الى العقل والتجريب .. والعلوم والمكتشفات الحديثة وكل ما انتجه العقل الانسانى والنظم العصرية الحديثة من منجزات سواء فى مجال الصناعة والزراعة أو التأمينات أو الادارة أو الحروب أو البناء .. الخ .

والتماسنا لهذه المنجزات والعلوم لا يعنى اننا لا نستلهم الكليات من كتاب الدعوة الاصلى مع السنة الشريفة .

واضعين فى الاعتبار ان هناك كما قلنا ـ اكثر من تفسير واكثر من منهج لفهم هذه الكليات .. ونحن نختار التفسير الثورى الذى وضعت اسسه التجربة الاسلامية الاولى على يد الرسول الكريم .. ونحن بذلك لا نتخذ جانب الجوهر الصحيح للاسلام فحسب بل اننا نقف ـ وهذا طبيعى ومنطقى ـ الى جانب الغالبية الساحقة من جماهير المسلمين فى صراعها العنيف من اجل حياة افضل .

وأرى ان أقرر أن هذا هو الموقف الاسلامى الصحيح ، وهو ايضا ، وفى نفس الوقت ، الموقف الاشتراكى الصحيح .

فالموقف الاشتراكى فى الاساس هو موقف سياسى فى المقام الاول ، يحدد اين يقف الانسان فى الصراع الطبقى المحلى أو العالمى .. والى اى جانب ينحاز .. فاذا وقف بجانب المضطهدين والكادحين فى صراعهم ضد الاستغلال والاستبداد واذا وقف الى جانب الشعوب فى صراعها ضد الاستعمار والاحتكار العالمى ومن اجل السلام والحرية لكل الشعوب فهو اشتراكى بصرف النظر عن موقفه الفلسفى .سواء اتفق

مع بعض الاشتراكيين على موقفهم من الدين ام لم يتفق ..
فأن هذا الموقف الذى تتخذه بعض المدارس الاشتراكية لا يمثل أساس هذه الفكرة التى هى فكرة سياسية بالدرجة الاولى ولا يمثل التزاما على هؤلاء الذين يدافعون عن هذه الفكرة .

واننا نرى ان الايمان بالاشتراكية النابع من الايمان الصحيح لتعاليم الدين الاسلامى هو شكل راق من أشكال هذا الايمان .. لانه ايمان يستند الى القيم الروحية والتراث الفكرى لمجتمعنا ويمكن داعيته من كسب الملايين من جماهير المسامين الذين يتطلعن الى غد مشرق تسوده العدالة والحرية.

وفى عصرنا الراهن حيث تحاول كثير من الافكار المنحلة واللا أخلاقية التى أنبتتها فوضى النظام الرأسمالى وتحلله ان تغزو مجتمعنا .. فأن التمسك بالاخلاق والقيم الانسانية يعتبر سلاحا رئيسيا فى معركتنا .

والحقيقة ان الدين والاشتراكية يلتقيان معا حول هذه النقطة ايضا فكل منهما يتمسك بالخلق والقيم الانسانيةالقويمة ويرفض التحلل ويدعو الانسان الى ان يحترم ذاته ويتمسك بالخلق القويم .

★★★

وليس غريبا ان يكرن الغرب الرأسمالى الاستعمارى هو المصدر الوحيد لكل هذه الموجة من الاستهتار بالاخلاق والقيم ، وسواء تمثلت فى بعض افلام للجنس أو فن مبتذل أو ملابس غير أخلاقية .. فالحقيقة ان هذه الموجة ليست صدفة بحتة بل هى

عمل مخطط من قبل الاحتكاريين الذين يريدون الهاء الشعوب وشغلها بالجنس والاستهتار عن الصراع الطبقى والنضال من أجل مستقبل أفضل والغاء الاستغلال · وهو أيضا تعبير عن القيم الزائفة المستقرة فى المجتمع الرأسمالى ·

والحقيقة ان الاخلاق سلاح هام يجب ان يتسلح به كل انسان مسئول وكل شخص فى مجتمعنا ، فالوازع الدينى الذى يمثل علاقة مباشرة بين الرب والعبد ، والذى يشكل رقابة دائمة وصارمة ومستمرة ومباشرة على الانسان هو سلاح فعال فى تقويم الفرد وحثه على التقيد بالمثل والاخلاقيات والقيم النبيلة ·

وهو بالضرورة سلاح يحمى أموال الدولة وأعمالها ، ويسهل تعبئة الجماهير المؤمنة فى معركة البناء الاشتراكى ·

○

الاسلام حكومة دينية أم مدنية

« ليس فى الاسـلام سـلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر • وهى سلطة خولها اللهلادنى المسـلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما خولهـا لاعلاهم يتناول بها من ادناهم »

« الشيخ محمد عبده »

★★★

فى كثير من الاحيان ـ وفى ظروف محدودة ـ يعاود هذا السؤال طرح نفسه « هل يدعو الاسلام الى سلطة دينية أم لا ؟ »

وانا اعتقد ان موقف الاسلام الجازم مع السلطة المدنية وضد الدعوة لقيام سلطة دينية ، والادلة على ذلك كثيرة :

فالدين مصدره السماء ، ومن ثم فان اية حكومة تدعى لنفسها سلطة دينية انما تعلن انها مفوضة من السماء ء وتلك هى نظرية « الحق الالهى » التى سادت فى المجتمعات القديمة والتى كانت تسـودها روح الوثنية حيث كان الملوك والحكام أبناء للالهة أو انصاف آلهة ••

والاسلام يقوم فى الاساس على تنزيه الخالق عز وجل عن مشابهة المخلوقات ، كذلك يرفض الاسلام الكهانة والرهبانية بل ويرفض منصب « رجل الدين » وهذه كلها امور فى صف الحكومة المدنية •

نشرت بمجلة الجديد عدد ١ غسطس ١٩٧٢

وثمة مسألة أخرى هامة وهى أن الحاكم الاسلامى الوحيد الذى جمع الى جانب السلطة المدنية « صفة دينية خاصة كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام »

وبعد وفاة الرسول (صلعم) لم يعد للخليفة « صفة دينية خاصة يتميز بها على سائر المسلمين ، وانما صار المصدر الاساسى لتميزه هو المنصب المدنى ·· أى منصب الخليفة ··

والخليفة ـ فى الاسلام ـ ليس خليفة لله تعالى فى أرضه لكنه كان على عهد أبى بكر الصديق « خليفة لرسول الله » ثم على عهد عمر بن الخطاب » خليفة رسول الله ، ثم « أمير المؤمنين » ·

وحتى هؤلاء الذين أجازوا تسمية الخليفة « خليفة الله » وهم اقلية ضئيلة .فقد اجازوا ذلك من منطلق يقول ان صاحب هذا المنصب أنما تتمثل فيه سلطة الناس الذين هم خلفاء الله فى الارض ·· أى ان مصدر السلطة المدنية للخليفة هو الشعب وليس الدين ·

وابن خلدون يناقش هذه القضية بشكل واضح تماما فيقول « واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته ، فيقال خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله واختلف فى تسميته خليفة الله ، فاجازها بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التى للادميين

فى قوله تعالى (انى جاعل فى الارض خليفة) وقوله (جعلكم خلائف فى الارض) ومنع الجمهور منه لان معنى الاية ليس عليه ، وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به ، قال : « لست خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ولان الاستخلاف انما هو فى حق الغائب وأما الحاضر فلا

* كذلك فاننا اذ اما استعرضنا مواقف كل التيارات الفكرية والفرق الاسلامية لم نجد غير الشيعة الامامية « الذين يمكن ان يقترب فكرهم حول « الامامة » من نظرية الحق الالهى فهم يرون ان اقامة « الامام » واجب على الله وليس واجبا على الناس ، وان الله قد حدد اشخاص الائمة ، وان الرسول قد أوصى بذلك فى «على» وبيته وانه لا دخل للناس فى ذلك وان الامام « معصوم» وحجة لله ومصدر للدين » ، « ونائب عن الله» واذا علمنا ان كل الفرق الاسلامية الاخرى تنكر مبدأ الوصية هذا وترفضه ادركنا ان هذا الفكر غريب عن روح الاسلام ٠

* وثمة حجة اخرى لعلها تدحض هذه الفكرة من أساسها هى قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) أى ما فرطنا فى الكتاب من أمور الدين منشىء ، ولو كان هذا المنصب منصبا دينيا ،لكانت أصوله وقواعده وأساليب تقلده محددة فى الشريعة الاسلامية ٠

ولو كان الامر كذلك ولو انه حدد بهذا الوضوح لما اختلف المسلمون حوله عند أول اختيار ، ولما وقعت حادثة « سقيفة بنى ساعدة » عندما حاول المسلمون اختيار أول خليفة لرسول الله ٠

ولقد كان منهج وأسباب خلاف المسلمين الاوائل حول هذه القضية قاطع الدلالة على انها مسألة اجتهادية وليست

من «اصول الدين» فقد ظهرت آنذاك نظريات عدة :

الاولى : تقول الانصار احق بهذا المنصب ، وكان وراء هذه النظرية « سعد بن عبادة » كبير الخزرج ومن خلفه الانصار ·

والثانية : تقول ان المهاجرين احق بهذا المنصب ، وكان وراء هذه النظرية ابو بكر وعمر وغالبية المهاجرين ·

والثالثة : تحاول ان تجد حلا وسطا ، أمير من المهاجرين وأمير من الانصار ·

أما الرابعة : فترى ان على بن أبى طالب هو الاحق بهذا الامر وكان يساند هذا الرأى العباس عم الرسول وأبو سفيان وأبو ذر الغفارى والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر والزبير بن العوام · الخ ·

والنظريات الاربع تدور كلها حول فكرة جوهرية هى مدنية السلطة المتنازع عليها ، فان أحدا لم يطلب الخلافة لنفسه أو لغيره على أى أساس يوحى بأنها سلطة دينية ·

كذلك فانه لو كانت « ولاية الامر » ينظر اليها على أساس دينى لما ثار نزاع ، أو لثار هذا النزاع على اسس دينية بحتة لكن الواضح تماما هو ان النزاع قد ثار على أسس مدنية بحتة أما حول « اهل الرسول وعشيرته » أو حول مؤهلات مدنية أو بشرية ولو كان هذا المنصب دينيا لاستوى ازاءه كل من المهاجرين والانصار ·

كذلك فان هذا الخلاف بين المسلمين الاوائل هو دليل على أن قضية « السلطة » فى الاسلام هى مسألة « مدنية ،

وانها بالقطع ليست مسألة دينية والا لخضعت فى أصـولها وتفاصيلها لتحديدات الشريعة القاطعة ٠

كذلك فان هذا الاختلاف بين المسلمين الاوائل لم يمنع اجتماعهم حول قاعدة كلية قررها الاسلام فى هذا الصدد وهى طريق الشورى والبيعة أى الانتخاب من قبل اصحاب الشأن ٠

وهكذا فاننا نجد ان الاسلام حدد قاعدة كلية وشاملة هى مبدأ الشورى والقرآن الكريم يقول (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر) (آل عمران : ١٥٩) ٠

ويقول تعالى فى وصف المؤمنين : (وامرهم شورى بينهم) (الشورى : ٣٨) ٠

ويقول الرسول« صلعم » لابى بكر وعمر » وايم الله لو انكما تتفقا'ن فى واحد ما عصيتكما فى مشورة أبدا »

وحول هذه القاعدة الكلية فى اختيار الحـاكم اختلف المسلمون فى الرأى وفى التطبيق اختلافا واضحا ٠٠ وهذا الاختلاف هو فى ذاته دليل على « مدنية » الامر المختلف عليه فلو كان امرا « دينيا » بحتا لما تسنى ولما جاز وقوع كل هذا الخلاف ٠٠ لان امور الدين ليس تحديدها من اختصاص كل الناس ، وانما هى جزء من تعاليم السـماء ، وليسـت محلا للخلاف بين البشر ٠

* * *

ولقد رأينا حجم الخلاف ومداه فى سقيفة بنى ساعده عند اختيار خليفة رسول الله ٠

وعندما مرض أبو بكر عهد بالخلافة من بعده لعمر ـ بعد ان استشار المسلمين ولقد اختلف معه البعض وبذل أبو بكر جهودا كبيرة لاقناعهم ، وبات فى احدى الليالى مؤرقا من عدم اتفاق المسلمين على بيعة عمر ، وعندما نجح فى اقناعهم عهد اليه بالخلافة .. وغنى عن القول انه لو كان هذا المنصب دينيا لكان الامر خاصا بأبى بكر وحده ، دون استشارة لاحد وعلى أية حال فان الاسلوب الذى اتبعه أبو بكر يقدم لنا صورة ثانية تختلف عن صورة اجتماع سقيفه بنى ساعده .

وثمة صورة ثالثة أو تطبيق ثالث لمبدأ الشـــورى وهى الصورة التى طبقها عمر اذ انه قد حدد ست يختار منها الخليفة وهم : عثمـــان بن عفان ، وعلى بن أبى طـــالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص .

وثمة حجة أخيرة لعلها بذاتها كافية ، ذلك ان الاسلام الذى يقوم فى الاساس على الشورى وعلى أسس الديمقراطية الصحيحة ، ما كان له ان يضع فى يد الحاكم سلطة « دينية » تعوق المحكومين عن مساءلته ومحاسبته وتقويمه ان اقتضى الامر .

وهكذا فاننا نخلص من ذلك كله ان الاسلام وان تطلب من الحاكم والحكومة الالتزام بمبادئه العامة وبتعاليمه ، الا انه لم يطلب لهم حكما دينيا أو سلطة دينية .

O

محمد الانسان

ان الهدف الاساسى من هذه الدراسة هو القاء الضوء على زاوية محددة هى محمد الانسان . والمناضل . والقائد ، أسلوبه فى الحياة ، منهجه فى التفكير ، تصرفاته العملية .. وباختصار ان ننظر الى محمد « صلعم » فى تصرفاته الانسانية مع تلك الجماعة التى قادها من ظلام الجاهلية الى نور الاسلام سعيا لتحرير الانسانية كلها .

ان تعاليم الدين الاسلامى صريحة بغير ما لبس فى تاكيدها على ضرورة العدل الاجتماعى ، بل ان الدعوة الاسلامية كانت فى ذاتها منطلقا للعدل الاجتماعى بمن التف حولها من المستضعفين العبيد والارقاء والفقراء ، وبمن تصدى لها وقاومها من الاغنياء وكبار التجار واصحاب الاموال المستغلة فى الربا والقوافل .

ولقد كان محمد « صلعم » راعى غنم فقيرا من الفرع الفقير الذى خاض صراعا عاتيا ضد الفرع « الاموى » البالغ الثراء ، بل لقد عمل محمد أجيرا فى القوافل ، ورأى كيف يكسب التجار ، وكيف يخسرون الميزان ويغشون اثناء البيع ويسرقون الربح الذى حصلوا عليه بالغش .

- نشرت بمجلة الاذاعة عدد ٣ يوليو ١٩٧١

وهكذا كل شيء يختلط ببعضه ، السادة يقهرون العبيد والاجراء لا يثقون فى السـادة الذين لا يعطونهم الا اضـآل الاجور ويسرقون جهدهم ـ الامانة عملة لا تعرفها هذه السوق والحق والعفة والرحمة بالناس كلمات تنقل همسا بين الفقراء والصالحين ويطغى عليها ضجيج السماسرة ورنين الذهب والفضة ٠

لقد رأى محمد (صلعم) بعينيه وبتجربته أناسا يكرهون فتياتهم على البغاء ، وفاء لدين ابتلعه الربا الفاحش ، ورأى بعينيه ولمس بتجربته : العائلة تتحطم امام الفقر ووفاء للدين ، وبجـانب ذلك الربا الفـاحش والربح الكبير والغنى الذى لا حدود له ٠

لقد امتزجت تجربته الشخصية التى اكتسـبها بتعاليم الاسلام التى اوحى له بها فجعلت منه ثائرا قائدا ذا قلب رحيم رقيق يتسع للخير ولحب الناس جميعا ، لقد دعا الى ثورةكاملة تجتث كل الجذور الفاسدة لتغرس أسـاليب جديدة وعلاقات جديدة وقيما اخرى ؟

الانسان سيد مصيره ـ ليس للانسان ان يستشفع بأحد فالرجل وعمله ، ولا يصح ان يتنازل عن عمله لاحد يدبر عنه أمره فلكل انسان قلب يفقه به وعقل يتدبر به ، يجب ان تصان نفس الانسان ، من الهوان ، وان يصان بدنه من الاذى ، لا بد اذن من خلق مجتمع يسـوده الاخاء مجتمع تحكمه الامـانة ورعاية حق كل الناس على السواء ـ ثورة تقيم العدالة وتحرر

الانسان من السيطرة والخوف والحاجة الى لقمة العيش تحرر القلوب والعقول ، وتضع أساسا للتعامل بين الرجل والمرأة • بين الانسان والانسان •

لقد رفع صوته عاليا بحماس الرجل الذى خاض تجربة الفقراء والاجراء أمام السادة الاغنياء وكبار التجار •

ولقد كان صراع أغنياء مكة ضد محمد (صلعم) وضد تعاليمه صراعا طبقيا فى جانب كبير منه ، وكانوا لا يكفون عن التهوين من شأن الدعوة الجديدة باعتبار أن كل من التف حولها وساندها من الفقراء ••

وكان على الرسول أن يذكر اتباعه دوما بان الذين كفروا من قبل قد اتخذوا نفس الموقف ، وان الفقراء هم دوما أنصار كل رسالة حقة وعادلة •

كموقف قوم نوح عندما رفضوا الايمان به لان اتباعه فقراء •• (أنؤمن لك واتبعك الارذلون) الآية ١١١ من سورة الشعراء • وهى ايةمكية) •

(والارذلون) « هم الاقلون جاها ومالا » (تفسير البيضاوى ص ٥٢١ طبعة القاهرة ١٩٢٦) •

كذلك قول قوم نوح له ايضا (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) الاية ٢٧ من سورة هود •• وهى مكية) « أى أخساؤنا لفقرهم » (تفسير البيضاوى ص ٣٢١) •

وكان الوحى يؤكد دوما للرسول (صلعم) واتباعه ان النصر الحق سيكون من نصيب الفقراء والمستضعفين (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) « الاية ٥٥ من سورة القصص ، وهى مكية » ٠

وهكذا فان الدعوة قد حددت منذ البداية لنفسها مسارا نضاليا محددا ، فالتف حولها الفقراء ٠٠ وقاومها الاغنياء ٠

وكان الرسول (صلعم) يقف دوما ليعلم المؤمنين قيما جديدة واخلاقيات جديدة ، وفى ظل مجتمع كالمجتمع المكى ، فى عصر الجاهلية كانت العصبية والقبلية والعنصرية فى أوج عنفوانها فقاومها محمد (صلعم) (لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى) ٠

وحتى هو نفسه رفض ان يوضع فى موضع أسمى من غيره من المسلمين ، فعندما حاول بعض الصحابة اطراءه صاح فيهم قائلا : (لا تطرونى !)فقالوا « لماذا لا نطريك وانت سيدنا جميعا ؟؟ » فنهاهم عن ذلك ، فان هو الا بشر مثلهم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ٠

وعندما خرج محمد (صلعم) الى غزوة بدر لم يستخلف على المدينة أحد وجهائها ولا أحد أغنيائها وانما استخلف رجلين من بسطائها أحدهما يؤم الناس فى الصلاة والاخر يقض بينهم ٠ واوصى الذى هو قاض بينهم ان يستفتى قلبه فيما يعرض له من قضاء لا نص فيه ٠

واذا كان محمد يدعو اتباعة الى التعفف والى التقشف فقد كان يقدم لهم المثل والقدوة ، ولم يطالب قومه بشىء لا يقبله هو ، ولا يقدم عليه هو قبل غيره .

وقد حاول عبد الله بن ابى ان يدس على الرسول فراشا وثيرا حملته الى عائشة امرأة من الانصار ، ثم راح يروج يروج وسط المؤمنين ان رسولكم ينفق أموال الغنائم على نفسه وعلى بيته ، وانه يتخذ لنفسه فراشا كفراش كسرى .

وسمع محمد (صلعم) بالخبر فعاد الى بيته ليجد عائشة مسترخية على الفراش الجديد فى فرحة غامرة فأمرها ان ترده الى اصحابه ، ثم استلقى على الحصير الخشن كما تعود .

وادل مثال على ذلك ان النبى (صلعم) طلب من جميع به (يوم الوالى العادل أفضل من عبادة سبعين عاما) .

وفى اخر خطاب له فى الناس .. وقف يعلم قومه النزوع الى الحق والعدل وانه ما من انسان .. حتى رسول الله يسمو أو يعلو فوق الحق والعدل ..

« أيها النـاس من كنت جلدت له ظهرا فهـذا ظهـرى فليستقدمنه ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرض فليستقدم منه ومن أخـذت له مالا فهذا مالى فلياخذ منه ، ولا يخشـى الشحناء من قبل فانها ليست من شأنى » .

وهكذا فان القيم والاخـلاقيات التى غرسـها محمد (صلعم) فى رجاله والتى أوصاهم باتباعها وهى التى كان لهم فيها قدوة ومثلا هى كلها قيم تحض على المساواة والاخاء والتمسك بالعدل والحق .

ولكن محمد (صلعم) لم يقدم فقط نموذجا اخلاقيا وانما قدم ايضا نموذجا من العلاقات الاجتماعية القائمة على اسس صريحة فى نزوعها نحو العدل الاجتماعى ٠

وادل مثال على ذلك ان النبى (صلعم) طلب من جميع المهاجرين والانصار ان يعملوا فى بناء مسجد المدينة

فلما تحرج بعض الاغنياء من العمل بايديهم لم يشأ محمد ان ينهرهم ، وانما قدم لهم المثل والقدوة ، فانهمك هو فى البناء وعند ذلك أقبلوا على العمل خجلين ، ولكن متباطئين وحاول عمار بن ياسر ان يحث عثمان ابن عفان ، وهو واحد من كبار أغنياء وسادات مكة وهو فوق ذلك زوج رقية بنت الرسول ٠٠ ويثور عثمان « لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ٠٠ والله انى لارانى ساعرض هذه العصا على انفك)

ويعنفه الرسول (صلعم) تعنيفا شديدا فبأى حق يتعالى عثمان على عمار بن ياسر ، ولا يملك عثمان الا الاعتذار يقدمه لعمار ٠٠ والعدل الاجتماعى ليس مجرد تعامل أخوى وعلى قدم المساواة بين غني وفقير ، ولكنه فى الاساس تقاسم فى الاموال ٠٠ وخير مثال على ذلك هو دعوة الرسول الى (المؤاخاة) بين المهاجرين وبعضهم البعض عندما وصلوا الى المدينة والكثير منهم معدمون ، والبعض هرب تاركا ماله وثرواته خلف ظهره فآخى الرسول بينهم على اساسين : الحق والمؤاساة ٠

والمؤاساة ـ هى الاشــتراك والمساواة فى الاموال والارزاق (المؤاســاة ، يقال القوم اسـوة فى هذا الامر اى حالهم فيه واحدة ‥ وكذلك المؤاساة) ٠

والمؤاساة ـ هى المشاركة والمساهمة فى المعاش والرزق (لسان العرب جـ ١٨ ص ٣٧) ٠

ومن امثلة المهــاجرين الذين تمت بينهم هذه المؤاخــاة (أبو بكر وعمر ـ عثمــان وعبد الرحمن بين عوف ـ الزبير وعبد الله بن مسـعود ـ عبيدة بن الحارث وبلال ـ مصـعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص) ‥ « راجع كتــاب الدرر فى اختصار المغازى والسـير ـ لابن عبد البر ـ تحقيق الدكتور شوقى ضيف ص ١٠٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م) ٠

ثم يطور الرســول فكرة المؤاخاة فيجعلها بعد خمســة أشهر فقط من الهجرة مؤاخاة بين المهاجرين والانصار ٠

وبعد ان كانت مؤاخاة على الحق والمؤاســاة أضـيف اليهما أمر ثالث وهو الميراث أى ان الشــركة والمســاواة فى الرزق والمال تعدت حيــاة الذين تآخـو ، وامتدت الى ما بعد الممات بحيث صار يرث أحدهما الاخر ‥ واستمر هذا النظام اربعة عشر شهرا أى حتى غزوة بدر التى حدثت فى الشــهر التاسع عشر من الهجرة عندما نزل قوله تعالى (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض) عند ذلك صار التوارث بين ذوى الارحام والقرابة الذينتآخوا من المهاجرين والانصار ٠

وهنــاك نقطة هــامة جدا وهى ان هذه الاية لم تنســخ المؤاخاة على الحق والمواســاة فى الاموال ، انما الغت فقط التوارث بين المتآخين ٠

وهذه أيضا تشير الى تجربة النبى صلى الله عليه وسلم ونظرته للامور النـابعة من وحى الله له بالعدل بين النـاس ، والمنبعثة من احسـاسه بمشـاعر الفقراء والمعدمين ، ومدى اتساع هذه المشاعر ، حتى أقام ذلك النظام فى التآخى بين المهاجرين والانصار مدة اربعة عشر شهرا الى ان نزل قوله تعالى (وألوا الارحام بعضهم أولى ببعض) وذلك بهدف وضع الحدود للنظام فى المجتمع ، واستمر نظام المؤاخاة حتى النصر على بنى النضير وما اسفر عنه من غنائم كثيرة ، وكانت أول ثروة كبيرة يفىء الله بها على المسلمين ٠

فتوجه الرسول (صلعم) الى الانصار مثنيا على كرم ضيافتهم لاخوانهم المهاجرين ثم قال :

« ان اخوانكم المهاجرين ليس لهم مال فان شئتم قسمت اموال بنى النضير واموالكم بينكم جميعا وان شئتم امسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » فاجاب الانصار عن طيب خاطر وسماحة نادرة : « بل أقسـم هذه فيهم واقسـم لهم من أموالنا ما شئت » ٠

وبعد غزوة بدر اختلف المسلمون فى أمر توزيع الغنائم قال الذين حاربوا وغنموا انهم اصحاب الغنائم ، وهم أحق بها فلتوزع بينهم وحدهم وقال الذين كلفوا بحراسة خيمة الرسول انهم كانوا يستطيعون هم أيضا القتال والغنم ، فلماذا يحرمون واوشك القوم ان يقتتلوا فيما بينهم ٠٠ فخرج الرسول اليهم قائلا :

« انكم لاولى النـاس بعضـكم ببعض » ثم أمر أن توزع الغنائم بين الجميع على السواء ·

وبعد انتصار الرسول (صلعم) على بنى المصطلق وزع الغنائم بين الجميع على فقراء المهاجرين حتى يستغنوا ، وحتى ينتشلهم من وهدة الفقر أوليس هو القائل « كاد الفقر ان يكون كفرا » ؟

وكان هـدفه من ذلك أن يقلل الفـوارق بين الاغنيـاء والفقراء ، فتوزيع الغنائم على الجميع ، رغم انه يحمل معنى المسـاواة الا انه يحفظ للاغنيـاء غناهم ويبقى الفقراء على فقرهم ولهذا اخص الفقراء بالغنائم هذه المرة ، معلما اصحابه مبدأ جديد فى العلاقات الاجتماعية ·

(ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم)

(الآية ٧ من سورة الحشرة) ·

لكن الامر لم يقتصر على توزيع الثروات وانما أمتد ايضا ـ عند الحاجة ـ الى توزيع الزاد والمؤن ـ ففى احدى الغزوات نقص الزاد مـع المقاتلين ، فأمر الرسـول بجمع كل ما مـع المقاتلين من طعام ، ووضع امام الجميع ، ليأكل كل منه على قدر حاجته ، ثم قسم الباقى بينهما بالتساوى ·

حدثنا أياس بن مسلمه عن أبيه قال :

(خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا (أى دوابنا) فأمر نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فجمعنا مزاودنا (أى ما نحمل فيه زادنا) فبسطنا نطعا (أى بساطا من الجلد) فاجتمع زاد القوم على النطع قال ·· فأكلنا حتى شبعنا جميعا ثم حشونا جربنا)··

(ورد بصحيح مسلم شرح النووى ج ١٢ ص ٢٢ طبعة القاهرة) ·

ثم لنتأمل موقفا اخر للرسول (صلعم) ·· وهو موقفه من اجارة الارض وكان الناس على عهده يؤجرون الارض بالثلث أو والربع أو غير ذلك من غلتها فرأى الرسول احجاف ذلك بالزراع فنهى عنه طالبا من كل انسان ان يزرع ارضه بنفسه فان لم يستطيع فليتركها لمن يزرعها ·

روى رافع بن خديج « كنا نحاقل الارض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكريها بالثلث والربع والطعام المسمى فجائنا ذات يوم رجل من عمومتى فقال (نهانا رسول الله عن رمأ كان لنا نافعا ·· نهانا ان نحاقل بالارض فنكريها على الثلث والربع والطعام المسمى ، وامر رب الارض ان يزرعها أو يزرعها وكره كراءها وما سوى ذلك)

(مختصر صحيح مسلم ص ٧) ·

وعن جابر بن عبد الله ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « من كانت له ارض فليزرعها أو ليزرعها أخاه ولا يكرها ·· »

وهكذا فالاستغلال محرم ، ومالك الارض اما ان يزرعها بنفسه أو بدع غيره يزرعها لنفسه وفى الحديث الاول دليل على ان الرسول قد نهى عن كراء الارض رغم انه كان نافعا لقلة الناس ، وهم المالكون لها ، لانه كان ضارا بالاغلبية وهم المستأجرون وهذا تأكيدا لنظرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى مصلحة الاغلبية وجعلها فى صدارة تشريعاته .

كذلك فانه من المأثور عن رسول الله انه قد حمى أخصب الارض قرب المدينة (أى حرم تملكها ملكا خاصا وجعلها لعامة المسلمين) .

وقد روى البخارى عن ابن عباس « بلغنا ان النبى حمى النقيع .. (والنقيع هو الارض الكثيرة الماء) وبه سمى الموضع الذى حماه النبى (أى جعله ملكا للعامة) وهو على عشرين فرسخا من المدينة .. وهو اخصب واد هناك ، وفيه شجر غزير يغيب فيه الراكب .. (نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ـ رفاعة الطهطاوى صفحة ٤٩٢ طبعة القاهرة سنة ١٢٩١هـ) .

وقد روى أحمد أبو داوود عن الرسول انه قال « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلاء والنار) .

وهو بغير شك موقف حاسم يؤيد الملكية العامة لاهم مصادر الثروة فى المجتمع فى ذلك الحين .

ويروى عن الرسول حديث يؤكد فيه دعوته للاهتمام بمصالح المجموع وعامة الناس .. فعن ابى موسى رضى الله

عنه انه سمع النبى صى الله عليه وسلم يقول « لن تؤمنوا حتى تراحموا » .

قالوا « يا رسول الله ، كلنا رحيم » قال « انه ليس برحمة احدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » رواه الطبرانى .

وكم أدان الرسول الغنى الفاحش باعتباره سبب الفقر الفاحش ، ولقد كان الرسول يعلق فقر الفقراء مسئولية فى عنق الاغنياء .

ويروى الامام على عن رسول الله قوله « ان لله على أغنياء المسلمين فى أموالهمبقدر الذى يسع فقراءهم ، وما يجهد الفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما يصنع اغنياؤهم ، الا وأن الله يحاسبهم حسابا شديدا ومعذبهم عذابا اليما » .

ولقد نعى الرسول الكريم على الاغنياء كثرة غناهم وتجاهلهم لفقر اخوانهم .. ولقد مال يوما الى الكعبة فجلس فى ظلها ولاحظ مظاهر الغنى تبدو على البعض ومظاهر الفقر تكسو الكثرين ، فظل يردد فى أسى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » واقترب منه أبو ذر الغفارى وهو يردد هذه الاية فمال عليه الرسول قائلا « هم الخاسرون ورب الكعبة » فسأله أبو ذر من هم يا رسول الله ؟ فقال « الاكثرون أموالا ! »

ولقد كان الرسول يؤكد دوما ان المسلم الحق لا يجوز ما زاد حاجته ، ويأمر بأن يرد هذا الزائد عن الحاجة الى (المحتاج) باعتباره حقا له .

وعن ابى سعيد الخدرى انه قال « بينما نحن فى سفر مع النبى » صلعم اذ جاء رجل على راحلة له ٠٠ قال : فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا فقال رسول الله (صعلم) من كان معه زاد فليعد به على من لا زاد له ٠٠ قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لاحد منا فى فضل ٠٠
(صحيح مسلم بشرح الغورى جـ ١٢ ص ٢٣) ٠

ومعنى الحديث الشريف واضح لا لبس فيه ، فمن كان معه مال زائد فليعطه لمن لا مال له ، لكن العديد من أغنياء المسلمين استكثروا ان يضعوا دعوة الرسول بتقسيم المال الزائد موضع التطبيق ، وحاولوا جاهدين ان يتناسوا هذه التعاليم الانسانية الرشيدة والا يجعلوها ترى النور ٠

وثمة رواية توضح الموقف من بعض أغنياء المسلمين ، وهى رواية تحفزنا الى ان نتقصى تعاليم رسولنا الكريم مدركين ان بعض أغنياء المسلمين قد حاولوا نسيان تعالميه المنادية بالمساواة بين البشر وتعاليمه التى تحض على العدل الاجتماعى والتى ترفض الاحتكار والاستغلال ٠

والرواية عن الامام مسلم فى صحيحة جـ ١١ ص ٤٢ قال (حدثنا عبد الله بن قعنب حديثا سليما « يعنى ابن بلال عن يحيى وهو ابن سعيد) قال كان سعيد بن المسيب يحدث ان معمرا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من احتكر فهو خاطىء ٠٠ فقيل لسعيد» : فانك تحتكر ، فقال سعيد ٠ ان معمرا الذى كان يحدث فى هذا الحديث كان يحتكر ! ٠

واذا كان العمل هو المصدر الرئيسى للقيمة ، واذا كان العمل هو الاساس للتقدم ، وهو أساس كل الانظمة التى تسعى للعدل والمساواة ـ فلدينا العديد من الاحاديث الشريفة التى تمجد العمل وتراه العامل الذى يعطى الشىء قيمته ٠ فالرسول (صلعم) يقول « لان يحتطب احدكم ـ وفى رواية اخرى ـ لان يأخذ احدكم حبلا فيتحطب ـ خير له من ان يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ٠

ويقول عن يد العامل « هذه يد يحبها الله ورسوله » ٠
ويقول « لا يؤجر أحد الا بكد يمينه » وهو هنا يحدد ان العمل هو المصدر الوحيد الذى يستحق به الانسان الاجر ٠
ويقول « أطيب الكسب عمل الرجل بيده » (رواه أحمد والحاكم) ٠

★★★

وهذه الامثلة ، وهى بالغة الدلالة ، كافية بذاتها لتقدم لنا الصورة الحقيقية لمحمد كمناضل يدعو لتحرير الانسان ٠ وليسمو بالانسان فوق المطامع والاحقاد ، رافضا أن يستباح جلد الانسان أو عرقه للمستغلين ٠

لقد وضع محمد الاساس المتين لفكرة العدل الاجتماعى مؤكدا ان استغلال الانسان لاخيه الانسان أمر لا تقبله الشريعة ولا تقره ، مؤكدا ان الاسلام دين يأبى الا ان يعطى كل ذى حق حقه ، وحق الانسان ان يعيش حرا من كل قيد ٠ حقه فى ان يحفظ عرقه لنفسه والا يقدمه لقمة سائغة فى فم المستغل ،

حقه فى ان يرفض الظلم وان يقاومه ، وان يقيم العدل ويذود عنه .

لقد ترك محمد (صلعم) للمسلمين من القدوة والمثل اللذين قدمهما فى حياته ، والتعاليم التى أوحى الله اليه بها ما اذا تمسك به المسلمون حقيقة صاروا ثوارا فى طليعة المضطهدين والمستغلين مدافعين عن قضيتهم .

فتعاليم محمد (صلعم) تقف الى جانب المساواة بين البشر الى جانب الحق والعدل ، مع الثوار ورفض الاستبداد بالآراى أو بالحكم .

ضد تركيز الثروة والاحتكار ، وضد استغلال الانسان لاخيه الانسان . ان المجتمع الذى بشر به محمد (صلعم) هو مجتمع متكافل متضامن يسوده الاخاء ، يمجد العمل ، ويعتبره مصدرا لكل قيمة ، ويفرض على الحاكم ان يتدخل دفاعا عن مصلحة العامة وحقوقهم .

ولعلنا بمثل هذا الفهم لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ننصف أنفسنا ونقيها كثيرا من الحيرة وكثيرا من الشطط .

الدين ـ الاشتراكية ـ الماركسية

بينما العدو يحتل ارضنا ، ومتاعب التسليح والتعمير تحتاج الى كل طاقتنا ، وتحدى اللحاق بالعصر يواجهننا .. عادت رتتفع مرة اخرى ، ومن اكثر مـ نمكان ، صيحة : الذئب! الذئب ! !

عاد التخويف من غول اسمه الالحاد ، أطلقته على الدنيا أمه الغولة .. التى هى فى رأى البعض (الماركسية) وفى رأى البعض الاخر (الاشتراكية) .

فما هى الحكاية بالضبط ؟

والحقيقة اننى ترددت قبل الكتابة حول هذا الموضوع عن الماركسية والالحاد . وكنت اتصور ان هناك موضوعات اخرى اكثر الاحا واحق بالاهتمام . فبلادنا مثخنة بجراح الحروب ، وهى تتطلع الى بناء المستقبل بين تهديدات خارجية ووسط مصاعب اقتصادية .

وهذه المشاكل الواقعية هى التى تستتحق تركيز الجهد والحوار والخلاف ، كنت اتصور هذا ، ولا زلت . ولكن يبدو ان البعض نجح فى اقحام قضية الالحاد والايمان فى جدول الاعمال ، ويرى البعض ان مناقشة هذه القضية يأتى قبل اى

نشرت بمجلة روز اليوسف عدد ١ فبراير ١٩٧٥

مسألة آخرى ، وبما ان هذا الرأى يعلن ان الالحاد يساوى الماركسية ، بل وهو يرى ان ـ التهديد لقيمنا الدينية لا يأتى الا من الماركسية بالذات ، واذن فقد وجب توضيح الحقيقة • حتى لا تنشـــق جبهـة المـؤمنين الكـادحين والمتطلعين الى الاشتراكية باسم الخطر على قيمنا الدينية من الافكار والمناهج التقدمية • ان الكثرة الغالبة من القوى الاشتراكية فى بلدنا ـ وانا منهم ـ ستنفر الماركسية ، اذا كان جوهر الماركسية فعلا هو الالحاد واذا كان الهدف الاساسى لنضال الماركسيين هو تسريب الالحاد الى المجتمعات المتدينة •

ولكن هل هذه هى الحقيقة ؟ وهل يتعارض ايمان الانسان بالله وبرسله مع الاستفادة من اكتشافات علمية هامة فى مجال التاريخ والاجتماع والاقتصاد ؟

اذا اقتنع الانسان بصحة بعض الاكتشافات التى وصل اليها ماركس فى هذه المجالات ، فهل يتعارض ايمانه بالله مع استخدام هذه المكتشفات فى تطوير مجتمعه الى نظام يحقق الكفاءة فى اسـتخدام الموارد والعدالة فى توزيع النـاتج ؟ ولمصلحة من يوضع الانسان ، أى انسان ، أمام هذا الاختيار الشاذ : اما ان تؤمن بالله ورسـله ؟ واما ان تؤمن بالعلم ؟! ولم لا نؤمن بالاثنين معا ؟ • ان الدين يأمرنا بهذا ، فهل يرفض العلم هذا الامر ؟ واذا كنت اعتبر الماركسية علما فهل تلزمنى الماركسية بترك الدين ؟ !

على أى حال •• ان اجابتى على هذه الاسئلة لن تبدأ

بمناقشة موقف الماركسية والفكر الاشتراكى العلمى من التدين ولكننى سأبدأ من الواقع واقع الحياة التى نعيشها والواقع أغنى من أى نظرية ٠

الواقع يثبت ان هناك مئات الالاف من المتدينين والمؤمنين انخرطوا فى صفوف الاحزاب العمالية والشيوعية فى العالم يناضلون من أجل نظام افضل ينتهى فيه استغلال الانسان وليقيموا سلطة العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين بدلا من سلطة القوى المستغلة ، ولم يطلب احد من هؤلاء ان يتخلوا عن ايمانهم ، وهم حينما انخرطوا فى سلك هذه الاحزاب كان دافعهم الى ذلك قيمهم الاخلاقية النابعة من تدينهم وايمانهم الحقيقى بالكفاح من اجل العدل وانهاء الاستغلال على ارض أوطانهم وفى العالم كله ٠

وفى الاتحاد السوفيتى كان لينين يقبل القسس والمتدينين فى الحزب الشيوعى ، وفى أوروبا الشرقية الاشتراكية فى بولندا والمجر هناك متدينون اعضاء فى الاحزاب العمالية والشيوعية الحاكمة ٠ وفى ايطاليا يصوت ملايين من المؤمنين الكاثوليك للحزب الشيوعى فى الانتخابات ومن بينهم مئات الالوف من اعضاء الحزب ٠

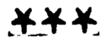
وفى أمريكا اللاتينية يشترك فى قيادة الحركة الثورية ـ بما فيها من الاحزاب الماركسية والشيوعية ـ عدد من رجال

الدين الكاثوليكي ، والقس الشهير « كاميلو توريز » هو نموذج رفيع لبطولة هذا الفريق من رجال الكنيسة الذين خاضوا الكفاح الثوري مسلحين بعقيدتهم الدينية وبالفكر العلمي ·
وقد نضيف هنا انه حدث في شيلي ـ قبل الانقلاب العسكري ـ ان انفصل الجناح اليساري للحزب الديمقراطي المسيحي وانشأ حزبا مستقلا يسترشد بالفكر الماركسي اللينيني ويتحالف مع كتلة الجبهة الشعبية ·

وفي بريطانيا ظل دكتور هيولت جونسون اسقف كانتربري طوال السنوات الماضية يعلن ايمانه بالمسيحية ويدافع عن أفكار ماركس الاشتراكية العلمية حتى سموه بالاسقف الاحمر وقد ألف كتابا عن الاتحاد السوفيتي اسمه « السدس الاشتراكي للعالم » كتبه في الاربعينات وقال بعد زيارته للاتحاد السوفيتي « انه في الاتحاد السوفيتي تمارس المسيحية ستة ايام في الاسبوع واجازة يوما واحدا اما في بريطانيا فتمارس المسيحية يوما واحدا هو الاحد وتبقى عاطلة بقية الاسبوع ! · وكما قال بحق السيد كيرت بخمان رئيس الحزب الشيوعي في المانيا الغربية بمدينة شتوتجارت في ١٨ يوليو ١٩٦٩ في مؤتمر الكنيسة البروتستنتية « ان كثيرا من المسيحيين ، كاثوليك وبروتستانت ، قد قاوموا الدكتاتورية النازية وعارضوا الحرب العالمية الثانية بوازع من ايمانهم ومعتقداتهم ، وبالمثل فمنذ تأسيس الجمهورية الاتحادية شارك المسيحيون في تطوير التقدم الاجتماعي · اننا لا نستطيع ان نواصل الحديث عنهم بوصفهم مسيحيين فحسب ، فالمعتقدات

الدينية بالنسبة لكثير من الناس فى الجمهورية الاتحادية لم تعد عقبة بل أصبحت حافزا لمساهمتهم فى النضال من أجل السلام والتقدم الاجتماعى ولهذا فنحن الشيوعيين نفرق بين المسيحيين وتلك الجماعات الكنائسية التى تستغل العقيدة المسيحية لمصلحة القوة الرجعية الحاكمة وتحاول ان تضع الكنيسة فى خدمة الرجعية ٠

وقد سبق ذلك عدة تطورات فى الفكر المسيحى فى أواسط الخمسينات مثل كتاب كليمس بروكموار اليسوعى « المسيحية فى فجر العصر الذرى » والذى قال فيه انه ليس للكنيسة اية علاقة بأى نظام اجتماعى ، وانما يمكن ان تستمر أيضا فى الاشتراكية ٠ وكان بروكموار يرى ان على الكنيسة ان تضع فى تقديرها أحتمال ان يكون المستقبل اشتراكيا ، على الرغم من اضافته بان كارل ماركس ايضا فى حاجة الى ان يحول الى المسيحية كما حدث مع ارسطو ٠ ثم جاء مجلس الفاتيكان الثانى لينفصل بحذر عن عداء البابا بيوس الثانى عشر للشيوعية ٠ وبتأثير التطورات فى أمريكا اللاتينية ، اتخذ موقفا أكثر تقدمية تجاه القضايا الاجتماعية المختلفة مثل قضية الملكية ٠ وفى نفس الوقت تقريبا سمح المنشور البابوى « باسم أت ثيريس » اولا للكاثوليك بالعمل المشترك مع الماركسيين فى المجالات الاقتصادية والسياسية واخيرا وضع المنشور البابوى « كليزيام سيام » قواعد الحوار بين الكاثوليك والماركسيين ٠



هذا عن موقف رجال الدين من المسيحيين ، فماذا عن موقف رجال الدين المسلمين ؟ سنشير هنا الى مجرد مثال من عالم دينى مرموق هو الشيخ رشيد رضا صاحب (المنار) : والذى كتب يقول فى المجلد الحادى والثلاثين لعام ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ صفحة ٧١٩ من مجلة (المنار : « البلشفية هى مجرد مرادف للاشتراكية ، والاشتراكية تعنى تحرير العمال من نير الحكومات الرأسمالية والاستغلالية ، وعلى المسلمين ان يؤملوا خيرا فى انتصار البلشفية طالما انهم هم ايضا كادحين يعانون من نفس النير ، واذا ما انتصرت الاشتراكية فان عذابات الانسانية سوف يوضع لها حد ، ان الشيوعية لا تتناقض مع الشريعة الاسلامية بينما تتناقض افعال الحكومات الاوروبية مع شريعة الاسلام .

وفى وطننا العربى حيث لعب الدين طوال السنوات الماضية دوره الطبيعى فى مقاومة الاحتلال والنهب الاجنبى والهم فقراء الناس فى كفاحهم من اجل الحق والعدل وتصفية الاستعباد والاستغلال ، قام نفر من المسلمين ووجدوا فى منابع الثورة الاسلامية الاولى ومبادئها الكلية والعامة ، كما جاءت على يد الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حافزا لهم على تفهم القوانين العلمية العصرية للمجتمعات ، وعلى ان يتبنوا اتجاه الاشتراكية العملية ـ والحقيقة انه يوجد فى بلادنا العربية ـ وهذه حقيقة ـ اناس قد اعلنوا ايمانهم بالله سواء كانوا مسلمين او مسيحيين ، ولكنهم يسلكون فى انظمتهم السياسية والاقتصادية وكفاحهم الاجتماعى المنهج

الماركسى ؛ ولا شك انهم متدينون فهم أعلنوا ايمانهم بالله وكتبه ورسله ولهم أفكارهم ونضالهم من أجل نظم سياسيةواقتصادية معينة يجب ان نقول لهؤلاء أهلا بكم وبنضالكم م نأجل مجتمع التكافل والعدالة الذى بشر به الاسلام

ان النظر الى محاولات الجمع بين الاخذ بمنهج الاشتراكية العلمية مع الالتزام بالجوهر النقى للاسلام ، ان النظر الى هذا الامر على اعتبار انه محاولة تكتيكية لغزو المجتمعات المؤمنة هو من قبيل قولنا لمن يلقى الينا السلام : لست مؤمنا • وهو ما يعلم كل عارف لدينه منافاته لموقف القرآن • فالامر ليس « تكتيكا للغزو » ولا هو تلفيق أو خداع •• ذلك ان التفسير المستنير للدين ، وابراز الطاقات الخلاقة والمبدعة للايمان فى دفع عجلة التطور الىالامام قد جعلت عددا من القادة الماركسيين والشيوعيين وايضا من غيرهم يبصرون الارض المشتركة التى يقف عليها الانسان المتدين والمستظل برأيه الاشتراكية العلمية • وها هو بالميرونوليانى ، السكرتير العام السابق للحزب الشيوعى الايطالى ، يتحدث عن موقف الماركسية من الدين والتدين ، فلا يراه مجرد « تحالف » بين المتدينين وبين غير المتدينين فى النضال اليومى ضد العدو المشترك ، بل يضع القضية فى مستوى اعلى عندما يقول : « انه اذا كان المقصود بالدين ان يؤمن الانسان بوجود قوة تحضه على عمل الخير وتمنعه عن عمل الشر ، فلا اعتراض لنا على ذلك ، بل اننا نرحب به »

فاذا كانت الماركسية ترحب بالتدين فى اوربا ، حيث

رسخت للتدين تفسيرات مناهضة للعلم والتقدم الاجتماعى ، فكم هى واسعة وعميقة ارض اللقاء والنضال المشترك على ارض المجتمعات الاسلامية حيث يمثل تراث الاسلام ، اذا فهم باستنارة واخلاص ، طاقة تدفع التقدم بغير حدود ؟ ٠

اننا اذا شئنا موقفا عربيا مسلما يعبر عن الامكانيات الغنية لذلك اللقاء فسنجده فى تجربة الثورة العربية المسلمة التقدمية فى الجزائر عندما عبر عنها أحد قادتها فقال : ان الجزائر ستبنى مستقبلها وفى يدها اليمنى : القرآن ، وفى يدها اليسرى كتاب (رأس المال) ٠

ولعل هذا الوضع المتميز لتراث الاسلام الفكرى هو الذى جعل فيلسوفا ماركسيا مثل روجيه جارودى يقول : ان ماركس لو امتدت به الحياة فاستكمل مشروعه فى دراسة الاسلام لكانت هناك اضافة جديدة للماركسية مثل تلك الاضافات التى جاءت من مصادرها الثلاثة المعروفة : الاقتصاد الانجليزى ، والاشتراكية الفرنسية ، والفلسفة الالمانية ٠ ويرى جارودى أن انجاز المهمة التى لم ينجزها ماركس ستجعل المسلم يبنى الاشتراكية العلمية بتراث الاسلام الفلسفى والاجتماعى ٠ وبالفعل هذا هو دور الماركسيين المرتبطين بتراث هذه المنطقة ٠

فنحن اذن امام مهمة كبرى للتوفيق بين تراثنا الحضارى وبين اكثر المناهج رقيا فى الثورة الاجتماعية ، وهى مهمة لا تدفعنا اليها الرغبة المجردة فى التوفيق ، بل نراها الموقف الوحيد المتسق مع الطابع العقلانى والتقدمى لتراث الاسلام ٠

ثم أننا لا يشغلنا ان كثيرا من الاشتراكيين الماركسيين وغير الماركسيين فى اوروبا قد الحدوا ، فهذه قضية تخصهم ، وهى ظاهرة اوروبية صرفة ، ولا نلزم اى اشتراكى ماركسى أو غير ماركسى بهذه الافكار فى أى مكان • اذ ان ظاهرة الالحاد لها تاريخها الخاص فى اوربا ، وهى منتشرة فى العالم الرأسمالى بصورة كبيرة ، مما يجعلها ظاهرة خاصة لهذه الحضارة الاوربية ، ولا تتعلق بمنهج اجتماعى معين •

والقيمة الاساسية للفكر الاشتراكى العلمى انه اكتشف القوانين الموضوعية لتطور المجتمعات وصاغها صيغة ملائمة وعلمية ، وهذه القوانين ليست ملكا لاحد بل تراث انسانى عام يتعين على كل مخلص لقضية التقدم الانسانى ان يستفيد منها ويسترشد بها فى نضاله ، واننا ونحن نخوض معركة البناء الاشتراكى فى بلادنا ، يتعين علينا ان نستخدم هذه القوانين العامة لتطور المجتمعات كمنهج يهدينا فى العمل الثورى ، لكننا نستخدم هذه القوانين بعد ان نضيف اليها بعدا قوميا وروحيا يتمشى مع تراثنا القومى والدينى مما يمكن لهذه

★ ★ ★

لقد بدأت الاشتراكية العلمية بكتابات ماركس وانجلز ولينين ، ولكنها لا يمكن ان تتوقف عند ذلك ، فقد ازدادت غنى وثروة بالفكر الانسانى والتجارب الانسانية التى اضيفت اليها من الخبرات النظرية والعلمية للاحزاب الاشتراكية

والعمالية من ذلك التاريخ حتى اليوم مضـافا اليها خبرات حركة التحرر الوطنى الكبيرة ضد الاستعمار فى العالم الثالث ومن أجـل التغير الاجتمـاعى ، بل ويعتبر الميثـاق الوطنى المصرى وبرنامج العمل الوطنى احد هذه المنجزات التى تضاف لتراث الاشتراكية العلمية كتجربة لحركة تحرر وطنى تضـع برنامجا للتغير الاجتماعى · ورواد الاشتراكية العلمية الاوائل يحثون على هذا الاتجـاه فهم يؤكدون ان افكارهم « ليسـت عقيدة وانما مرشد للعمل » ـ افكارهم تؤكد على نسبية المعرفة وبالتالى لا يمكن أن تتحول أفكارهم الى عقيدة ثابتة ، وأفكارهم واكتشافاتهم لا بد ان تتطور باستمرار مع الكشوف العلمية الجديدة ، وعلى ضوء الخبرات والمعارف التى يكتسبها البشر فى كل مكان · ومن هنا لا يصبح غريبا أن يعلن ماركسيون فى عالمنا العربى انهم يضيفون بعدا روحيا الى البناء الاقتصادى والاجتماعى ، وانهم يؤمنون ـ على ضوء تراثهم ـ بان القيم الروحية دافع لمزيد من التقدم داخل مجتمعاتنا ·

ان القضية الاساسية ـ وينبغى ان نواجهها بصراحة ـ هى ان الاشـتراكيين العلميين يعتقدون ان الاتجـاه الطبيعى لتطور المجتمع هو ان يصبح مجتمعا للجماهير العاملة ينتفى فيه الاستغلال · ومن المؤكد ان الطبقات المستغلة تعارض هذا التطور وتعترض طريقه ، ونحن نعتقد ان الموقف الاول اقرب الى جوهر الدين وروحه ، ولكن ليس من حقنا بالقطع ان ننفى عن الآخرين ايمـانهم ومن باب اولى اعتقد انه ليس من حق هؤلاء الاخرين تكفير الاشتراكيين ، ماركسيين وغير ماركسيين

الذين يعلنون انهم يؤمنون بالله ورسله • لنواجه القضية الاساسية على حقيقتها فهو خلاف اقتصادى وسياسى بين مصالح الطبقات الكادحة ومصالح الطبقات المستغلة ، واذا كانت هناك معارضة للاشتراكية فلنقلها صريحة ، ولا داعى لاخفاء هذه الحقيقة تحت قناع معارضة خطر الالحاد الوهمى •

ان الاشتراكيين الذين يؤمنون بهذه الافكار لا يهدفون الى غزو المجتمعات المتدينة التى ترفض الالحاد بقدر ما يهدفون الى مساعدة هذه المجتمعات المتدينة فى أن تناضل من أجل حياة افضل وانهاء الاستغلال والفقر والتخلف ، وانضمام جموع المتدينين الى صفوف النضال الاشتراكى يدعم قوة الدين والتدين ولا ينقص منهما شيئا ـ ويجب ان نسعد بازدياد عدد المؤمنين والمتدينين فى صفوف الحركة الاشتراكية فهذه قوة للايمان والتدين •

مرة أخرى مع الدين والاشتراكية والماركسية

ليس ادعاء لسعة الصدر ان اعرب عن ترحيبى بمن علقوا على مقالى فى روزاليوسف حول الدين والاشتراكية والماركسية. فالحقيقة اننى سعدت فعلا واحسست اننا نتناقش فى هذا الموضوع، ولاول مرة ، داخل اطار صحيح وليس مشكلة بعد هذا ان نتفق فى النقاش أو نختلف .

وحتى نتابع الحوار معا يحسن ان اذكر بخلاصة ما قلت فى مقالى السابق ، فقد اوضحت ببيانات وحقائق ان ملايين عديدة من المتدينين تناضل تحت راية الاحزاب الماركسية والعمالية دون ان تستشعر أى نوع من التناقض بين هذا النضال الثورى وبين ايمانها بالله وبالمعتقدات الدينية . ان ماركس ـ ككثير من المفكرين الاوروبيين ـ له اراء فى الدين لا نوافق عليها ، ونحن هنا من نبت تراث يختلف ، ولكن هذا لا ينفى ان ماركس قدم اكتشافات هامة لقوانين تطور المجتمع وفى النظرية الاقتصادية وهذا هو الانجاز الاساسى والجوهرى الهام لكتاباته .

واذا كانت هذه الكشوف تؤدى الى تقدم البشر عبر اقصر الطرق ، وتقضى على الاستغلال فان واجب المسلمين ان

نشرت بمجلة روزاليوسف عدد ٢ مارس ١٩٧٥

يستخدموا هذه القوانين والنظريات العلمية ، واذا اعلن الانسان المسلم عن اقتناعه بهذه القوانين والنظريات فان هذا لا يعنى انه يمتد بإقتناعه الى كل كلمة قالها ماركس فى مجال الفلسفة . وبالتالى فمن الممكن ان يكون الانسان مسلما حتى النخاع ، ثم مستخدما ـ فى نفس الوقت ـ لقوانين ماركس فى الاجتماع والاقتصاد ، التى يعتقد انها صحيحة علميا . ولا داعى بالتالى لهذا الربط التعسفى بين الحديث عن الماركسية والاشتراكية العلمية وبين الحديث عن الالحاد . واذا صدقت النوايا فمفروض ان يسعد المسلم حين يسمع ماركسيا يؤكد له انه أيضا مسلم ، ويهدف الى رفعة المسلمين المظلومين ، ولكننى الحظ ان البعض يتميز غيظا عند سماعه مثل هذا الحديث !

على أية حال أعود الى الردود التى تلقتها روزاليوسف حول مقالى هذا . واذا قلت انها تنافشت داخل اطار صحيح فاننى اشير مثلا الى قول ـ الاستاذ حسين محمد حسن (خلاصة الموضوع ، من وجهة نظرى ، هى انه اذا كان المسلم يؤمن بالله ويطبق فى سلوكه النظام الماركسى والفكر الاشتراكى الشيوعى ، فانه لا يعلم حقيقة الاسلام) . فالاستاذ حسين يختلف معى بشدة ، ولكنه لم يحل لنفسه ان يرمينى بالكفر نتيجة هذا الخلاف ، فالامر لا يعدو ـ من وجهة نظره ـ اننى لا افهم حقيقة الاسلام ، وكان من حقه ، بل من واجبه ان يعيننى على فهم ما التبس على .

كذلك د. عبد العظيم هلال : لقد علق على القول الذى نقلته عن الشيخ رشيد رضا .. عندما اعلن هذا العالم

الاسلامى الجليل ـ ومنذ الثلاثينات ـ انه لا تعارض بين الاسلام والبلشفية ، وقال د. هلال ان : « الحمد لله الذى يأبى لنا معشر المسلمين ان نكون ممن يبنون عقيدتهم على قول هذا أو ذاك مهما كان هذا أو ذاك عالما دينيا مرموقا » وبالفعل نحن نحمد الله على ان الانسان يقف ـ فى الاسلام ـ امام ربه بلا وسيط ، وبلا مؤسسات تحتكر حق تفسير ما يحل وما لا يحل ، وحين استشهدت بقول الشيخ رشيد رضا لم اكن اقصد انه رأى ملزم لكل مسلم ، ولكنه رأى أوردته لكى اثبت اننى لا انفرد بقول لم يسبقنى اليه آخرون ، فقد سبقنى اليه ، ومنذ عشرات السنين ، رجال قد يختلف مع اجتهاداتهم ، ولكن لا يشك فى صدق ايمانهم . والدكتور هلال ذكر اعتراضه على قول الشيخ رشيد رضا بهذه الروح على ما اعتقد . وهذا ما جعلنى اقول ان النقاش حين يدور فى هذا الاطار يكون نقاشا صحيا ومجديا ، حتى وان بدا حادا .

انتقل الان الى جوهر الحجج التى قدمت ضدى . وقد راعنى حقيقة انها بدأت بموقف غريب من العلم ، فالاستاذ حسين يقول ان ايمان الشخص المسلم يتعارض مع استخدام الاكتشافات العلمية حتى لو اقتنع بصحتها : ولماذا هذا الرأى الغريب « لان المسلم الواعى يؤمن بالنظرية التى تقول ان العلم متغير والدين ثابت » ولا شك فعلا ان العلم متغير والدين ثابت ولكن هذا لا يعنى ان نستغنى عن العلم ونكتفى بالدين . ولكنه يعنى الا نخلط بين الاثنين ، فلكل مجاله وفى العلم بالتحديد

ينبغى على المسلم أن يستخدم الاكتشافات العلمية التى يثبت صلاحها لامته ايا كان صاحبها ·· ولولا هذا لدرنا نحطم كل ما يحيط بنا من آلات ·

اما د· هلال فانه يقول : ان كلمة علمية تعنى « انها لا تؤمن الا بالمحسوس من الظواهر · وبالتالى هى تكفر بكل ما هو غيبى » · وهذا كلام ينبغى ان نقر أيضا بانه غير صحيح ، والا كان من الواجب ان ننبذ تماما اى تطلع الى معرفة ما يحيط بنا · نعم ان العلم يتقدم بالملاحظة والتجربة · وبالاستقراء والاستنباط ، وباستخدام هذه الوسائل نكتشف القوانين والسنن التى تحرك العالم المادى الموضوعى وحين نكتشفها نسخرها لخدمتنا · ذلك ان تطور المجتمعات البشرية جميعها ـ بصرف النظر عن اديان ومعتقدات اهلها ـ تحكمها قوانين علمية ايضا ، تدعو الى الاستفادة منها والاعتبار بها ، وهذه القوانين هى التى يسميها القرآن الكريم « سنن الله فى الكون » · وهو يطلب من المسلمين ـ كما يقول الامام محمد عبده ـ «النظر والاعتبار بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر » ـ كل البشر ـ وذلك « ان لله فى الامم والاكوان سننا لا تتبدل ·· وهى التى يعبر عنها قوم بالقوانين ·· فنظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع ان ينظر الى اصول هذا النظام حتى يرد اليها اعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه ، فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر الا الشقاء وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين

سببه • فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر ، اتى لنا باحكام تلك السنين فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه •• (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ـ جـ ٣ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤) •

فالنظر فى سنن الكون وقوانين المجتمعات البشرية سيقودنا حتما الى ما ترضى عنه طبيعة الدين • كما قرر الشيخ محمد عبده ومن ثم فلا مجال لقول من يقول : ان النظر فى هذه السنن سيفضى بنا الى الكفر بما هو غيبى •• ومفروض ان الانسان المؤمن يزداد ايمانا بالله كلما اقترب اكثر من فهم قوانينه •

قد يقال ان الكاتبين لم يقصدا العلوم الطبيعية وتطبيقاتها التكنولوجية فى مجالات الانتاج ، وانما يقصدان امور المجتمع الانسانى ، ولكن الاستاذ حسين يقول : ان « الاسلام فيه الاقتصاد والاجتماع والسياسة والادارة ـ والتربية وغيرها ، وهو قانون الهى صادر من كامل لا نقص فيه ، وهو البارى عز وجل » •

اننى اعتقد ان هذه المقولة بالذات هى سبب كل الخلاف يكفى ان نعود الى كلمة الكاتب نفسه • الدين ثابت والعلم متغير •• وكافة هذه المجالات التى عددها علوم ، وعلوم حديثة ، وعلوم بطبيعتها متغيرة متطورة ، فكيف ندمجها فى الدين الثابت الذى لا يتغير ؟

ان الدين ثابت وملزم فى شق العبادات وفى جانب

تنظيم الحياة قدم الاسلام مبادىء آساسية • هى ايضا ملزمة ولكنها عامة بالضرورة كى تصلح فى كل زمان ومكان ولكل المجتمعات • ان هذه المبادىء هى المثل التى ينبغى للمسلم ان يناضل من أجل تنفيذها ، ولكن الشكل والاسلوب ترك للانسان المسلم كى يتدبره ويتولاه ، وفق مقتضيات العصر والحياة ، لقد ترك للانسان المسلم ان يضع العلوم الانسانية ، علوم الاقتصاد والسياسة والادارة والاجتماع الخ • وهى علوم بالضرورة متغيرة ومتطورة • وفى البحث لتطوير هذه العلوم نحن مطالبون بمتابعة ما يحدث فى أى مكان فى العالم • ان الحديث عن ان ـ الاسلام قد حوى كل شىء يعنى ان نغلق اذننا وعيننا عن كل ما يحدث خارج المجتمعات الاسلامية بل انه يعنى ان نكف عقولنا عن التفكير تماما ، اذ ما ضرورة التفكير ما دام كل شىء جاهزا تحت أيدينا ؟

ان هذا الكلام مرفوض ، ليس باسم المنطق السليم فقط ، ولكن ايضا باسم ديننا وتراثنا وخبراتنا • والا فهل فى الاسلام ـ ونحن نأخذه من القرآن والسنة ـ ما يمنع المسلم من ان يستفيد من تجارب الاخرين أو يفهم الاسلام فهما يتناسب مع عصره وبيئته ؟ لقد جاء فى الاثر « اطلبوا العلم ولو فى الصين » والصين المقصود بها هنا بعد المكان الذى يوجد به العلم والعالم ، فاذا كان الحديث يأمرنا بالارتحال والسفر طلبا للعلم الذى قد يكون موجودا عند غيرنا ، فكيف نغلق عقولنا عن علم يأتى الينا فى هذا العصر الذى زالت فيه الحواجز وتقاربت المسافات ؟

ثم اننا اذا بحثنا عن الانجازات والتطبيقات التى نسميها اليوم « تراث الاسلام الفكرى والحضارى » ٠٠ قادنا هذا البحث الى المصادر الاصلية التى استلهم اسلافنا منها هذه الانجازات والتطبيقات ٠ ووجدنا ان غالبية هذه المصادر ثمار لحضارات غير عربية وغير اسلامية ٠٠ ونحن لن نفيض فى ضرب الامثلة ، فتلك قضية شهيرة ، ولن نختر امثلة من العصور المتأخرة حتى لا يقل ان تصرفت اهلها واقتباساتهم غير ملزمة لنا ، وانما سنشير الى امثلة حدثت فى عصور صدر الاسلام ودولة الخلفاء الراشدين ، التى تمثل « السابقة الدستورية » فى منهاج التشريع لدى كل المسلمين ٠

فمثلا ٠٠ عندما فكر عمر بن الخطاب فى وضع تشريع اقتصادى خاص بضريبة الارض الزراعية لم يجد حرجا فى ان يطبق نفس التشريع الذى كان قد وضعه كسرى أنوشروان ٠ وظل هذا التشريع يعرف فى تراثنا الاقتصادى باسم « وضائع كسرى » ٠٠ أى القانون الذى تواضع عليه الناس ـ اى اتفقوا عليه ـ وفى دولة كسرى انوشروان ٠ وكسرى هذا كان مجوسيا ٠ ومع ذلك لم يتحرج عمر بن الخطاب ٠ ولا المسلمون من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، من الاستفادة من فكر المجوس الاقتصادى والاجتماعى عندما رأوه اداة تفيدهم فى تحقيق العدل الذى يدعو اليه الاسلام ٠

وعندما تمت الفتوحات الكبرى على عهد عمر ، ونشأت أوضاع اجتماعية واقتصادية جديدة ، كونت واقعا اجتماعيا جديدا لم يكن قائما على عهدى الرسول وابى بكر ، وادرك

عمر ان هناك ضرورات جديدة تستدعى تنظيما جديدا للدولة واجهزتها ومرافقها ، غير ذلك التنظيم البسيط الذى كان موجودا ويومها لم يمانع احد من المسلمين فى الاستفادة من تجارب الامم والحضارات الاخرى ، ولم يزعم زاعم ان فى القرآن غنى عن انجازات البشر غير المسلمين وعلومهم المتعلقة بأمور الدنيا والمجتمع والمعاش ·· فوجدنا عمر يقرر تكوين جيش نظامى محترف متفرغ أهله للجندية ، وذلك بعد ان استشار المسلمين فقال له « الوليد بن هشام بن المغيرة » : « يا أمير المؤمنين : قد جئت من الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنودا ، » فأخذ بقوله (طبقات ابن سعد جـ ٣ قسم ١ ص ٢١٦) ·

كما قال له أبو هريرة : « يا أمير المؤمنين ، انى رأيت هؤلاء الاعاجم ـ الفرس ـ يدونون ديوانا يعطون الناس عليه فدون عمر الديوان » (طبقات ابن سعد جـ ٣ قسم ١ ص ٢١٦)

فعمر بن الخطاب قد اخذ برأى الوليد بن هشام بن المغيرة واستمع لمشورة ابى هريرة فأقتبس واستفاد من تجارب الفرس والمجوس والروم النصارى فى الاقتصاد والادارة وتنظيم الدولة ، ويومها ـ وايضا فيما بعد ـ لم يقل احد : ان على المسلمين الا يمدوا ابصارهم وعقولهم الى ما هو ابعد من تجربتهم الخاصة وكتابهم الذى اوحى الى رسولهم عليه الصلاة والسلام ·

ذلك ان كتاب الله وقرانه هو بالدرجة الاولى وفى الاساس

كتاب دين بلغت به الانسانية رشدها فى الهدى الالهى ، وما فى ثناياه من اشارات الى امور الدنيا والمجتمعات والمعاش هى قوانين كلية وعامة وهى قد جاءت كذلك حتى لا تضع على العقل الانسانى قيودا تحول بين الانسان والتجديد والتغيير والتطوير الذى تستدعيه تطورات الحياة والمجتمعات ٠

والله سبحانه وتعالى عندما يقول لنا : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فانما يقصد ـ كما يقول المفكر المسلم العظيم عبد الرحمن الكواكبى ـ ما فرطنا فى الكتاب من شىء من امور الدين » وليس من امور الدنيا ٠

ومالنا نذهب بعيدا وقد كفانا الامام محمد عبده مئونة هذا البحث عندما كتب يقول ان الزعم بوجود كل ما يحتاج اليه البشر فى المعاش والمعاد بالكتب المقدسة هو فكر غريب عن الاسلام ، وزعم زعمه رجال الكهانة فى المسيحية الاوربية فهم الذين جعلوا هذا الزعم اصلا من اصول المسيحية وقالوا : « ان الكتب المقدسة تحتوى على كل ما يحتاج البشر الى عمله سواء كان متعلقا بالاعتقادات الدينية ، والاداب النفسية ، والاعمال البدنية ، مما يؤدى الى نيل السعادة فى الملكوت الاعلى ، أو كان من المعارف البشرية التى يتأتى للعقل الانسانى ان يتمتع بها » ٠

والامام محمد عبده يرفض هذا القول ، ويسخر من قول « تيرتورليان » : « ان اساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة ، وان الله لم يقصر تعليمنا بالوحى على

الهداية الى الدين فقط ، بل علمنا بالوحى كل ما اراد ان نعلمه من الكون ، والكتاب المقدس يحتوى على العرفان ، على المقدار الذى قدر للبشر ان يتأتوه ‥ وانه يمكن ان يؤخذ فن المعادن — مثلا — باكمله من الكتاب المقدس ! » ٠

يرفض الامام محمد عبده هذا الموقف الذى يزعم اصحابه احتواء الكتب الدينية على كل امور الحياة ، دنيوية وآخروية ٠ ويقرر ان الاسلام يرفض هذا الزعم ويحرر عقول اهله من هذا الجمود ، ويحميهم من آثار العزلة والتقوقع الذى يجرهم اليه هذا الفهم الخاطىء والغريب (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده — جـ ٣ ص ٢٦٣) ٠

هكذا كان يفكر ويقرر أسلافنا العظام فى عهد الخلافة الراشدة ‥ وهكذا فكر وقرر الائمة الذين تصدوا منذ القرن الماضى لمهمة تجديد حياة المسلمين وقيادة مجتمعاتهم كى تتجاوز العصور المظلمة وتلحق بركب المدنية والتطور الحديث ٠

وفى الحقيقة ان هذا الموقف للامام محمد عبده كان المنهج الذى ازدهرت على اساسه حضارتنا الاسلامية الحديثة وازدهر انتاجها العلمى والفكرى ٠ فقد كان طبيعيا ان يبدأ اسلافنا العظام من حيث انتهى من سبقهم ، ولو قالوا ايامها انهم يملكون كل شىء لما توصلوا الى شىء مما نعتز به ونفخر ٠ لقد بدأ اسلافنا بالتعرف على تراث الحضارات المحيطة ، وبدأت الترجمات من اللغة اليونانية على يد خالد بن يزيد (المتوفى عام ٨٠٧ م) اى فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز

ثم تزايد النقل وانتظم فى أيام العباسيين · ولم يعد عملية فردية ولكن اصبح عملية متخصصة تتبناها الدولة وعلى اساس التفاعل مع هذا التراث الاغريقى ومع التراث الهندى والبابلى تجاوزت نهضتنا الفكرية من نقلت عنهم ، واضافت رصيدا جديدا الى العقل البشرى فى كافة مجالات العلم ·

ترى اليس مطلوبا باسم المنطق ، وباسم تقاليد الاسلاف العظام ، ان نفعل الان نفس الشىء ؟ وهل نكون قد كفرنا اذا قرأنا واستفدنا من اكتشافات ماركس كما استفاد الاقدمون من انجازات ارسطو ؟ قد يختلف بعضنا مع افكار ماركس ، وقد يختلفون حول تفسيرها وتطويرها · ولكنهم فى الزمن القديم اختلفوا أيضا حول ارسطو ، وكان هناك الفارابى وابن سينا وابن رشد وابن خلدون ، وكان هناك أيضا أبو الحسن الاشعرى والغزالى ·· كانوا اتجاهين ، بل اتجاهات · ولكنها كانت خلافات فى العلم · ولم ينكروا اسلام من قال انه مسلم لانه اختلف فى التأويل أو لانه استفاد من تراث الحضارات السابقة ·

***

بعد هذا العرض أود ان اسجل التقائى الكامل مع مضمون ما كتبه الاخ الشيخ المهندس احمد زين العابدين السماك · لقد اتفقنا فى المضمون واختلف معى فقط لاننى قبلت ان يطلق على لفظ ماركسى · وفى الحقيقة ليس من عادتى ان اتمسك بألفاظ معينة · فما يهمنى هو الجوهر ، وقد استخدمت

تجاهى كلمة ماركسية لانها اصبحت ذات معنى مفهوم فى كل مكان فى العالم ، وانا على استعداد لاستبعاد الكلمة اذا كانت تؤدى الى مزيد من اللبس بدلا من مزيد من الوضوح ، والمهم ان يكون واضحا اننى اقصد اننى مؤمن بالاشتراكية العلمية ، أى الاشتراكية التى لم تعد حلما وانما وصلنا الى انها حلقة ضرورية ومتقدمة فى تطور المجتمع ، وهذا قانون موضوعى كان لمفكرى الاشتراكية الاوائل فضل كشفه امام البشرية ٠

ثم تبقى كلمة حول مقال الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى جريدة الاخبار فقد سجل سيادته ان الماركسية دين والاسلام دين ، وبالتالى فهما لا يمكن ان يجتمعا معا الا فى قلب منافق وطبعا لا أملك فى مسـألة اتهام مثلى بالنفـاق الا ان اقول : سامحك الله ٠ ولكن ما هى حكاية ان الماركسية دين ؟ حسب علمى كمسلم فان الاسلام هو اخر رسالات السماء ٠ ثم اذا كنت قد اوضحت اننى التقى مع الماركسية فيما اعتبره علما ينفعنا ، وفيما لا يتعارض مع الاسلام ، فبأى حق يرمينى اخر بالكفر أو النفاق ؟ أعتقد ان اقصى ما يستطيع ٠ هو ان يعلن اننى اخطأت الاجتهاد ٠

دعونا اذن من تكفير بعضنا البعض ، ولنبحث فيما هو اهم وانفع ٠ المسألة فى الجوهر والاساس ـ كما قلت فى المقال السابق ـ هى اننى من الداعين الى تشديد النضال ضد اعداء امتنا الاستعماريين والصهاينة ٠ واننى من الداعين الى تنمية اقتصـادية جادة ، والى توزيع عادل اشـتراكى لثمار هذه التنمية بين العاملين الذين انتجوها ٠ اننى من الداعين الى

نهضة الامة العربية ومشاركتها الايجابية فى بناء حضارة الانسان · اننى من الداعين الى اقامة السلطة السياسية للعمال والفلاحين والمثقفين التقدميين لقيادة هذا التقدم · وايمانى بمثل الاسلام هو حافز لتشديد النضال من أجل هذه الاهداف · واذا كنت ارى ان الاشتراكية العلمية تعيننا بسلاح يساعدنا فى تبين الطريق ، فان من حق الاخرين ان يختلفوا معى · وقد يعارض البعض مبادىء الاشتراكية فى العدل الاجتماعى · ولكن الخلاف فى هذه الحالة هو بصراحة خلاف طبقى وسياسى · ولا داعى للزج بالاسلام فى هذا الخلاف حول تنظيم شئون دنيانا « فلن ازعم اننى اكثر اسلاما منهم حتى وان كنت اعتقد هذا · وكذلك ليس من حقهم ان يزعموا انهم اكثر اسلاما منى ، أو ان من يتفق معى فى الفكر قد اصبح من الكفرة أو المنافقين !

○

فهرس

صفحة

كراسات الثقافة الجديدة

سلسلة جديدة تصدر عن دار الثقافة الجديدة ، وتتناول مختلف القضايا التى تهم القارىء المصرى والعربى ٠ ٠

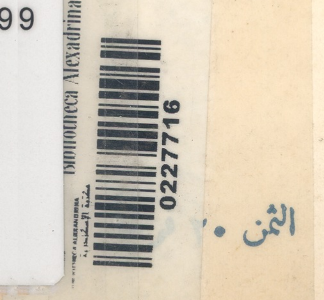
ويصدر منها :

- الاسلام والثورة — د ٠ محمد عمارة
- الثورة الفلسطينية — صلاح زكى
- انفراج لا وفاق — خالد محى الدين
- الطبيعة الطبقية للمجتمع الاسرائيلى — حسين عبدالعزيز
- تيارات فى الفلسفة الاسلامية — غالب هلسا
- ثم سكنت القافلة — عز الدين نجيب
- الأرض ورأس المال فى القرية المصرية — محمد عبد الشفيع
- الامية والقومية — محمد على عامر
- مذكرات يوسف صديق

الشركة المصـــرية لفن الطبـــاعة
عبد المنعم المصيلحى
ت : ٩٧١١٤٩

فى هذا الكتيب · يتصدى خالد محى الدين بشجاعة لمحاولات أعداء الاشتراكية الدائبة لافتعال تناقض زائف بين نصوص الاسلام وبين الفكر الاشتراكى ، ويكشف اساليبهم الفاشستية فى تكفير كل من يحاول التوفيق بين روح الاسلام وقوانين الاشتراكية ، ويربط بأسلوب موضوعى رزين بين الحلول التى تقدمها الاشتراكية كمذهب اجتماعى لمشاكل الانسان ، وبين ما تدعو اليه أصول الفكر الاسلامى ·

ويسحب من تحت أرجل الكهنة وبائعى صكوك الغفران سجادة الدين الذى يتمسحون به ، ويفضح حقيقة الخلاف بينهم وبين الاشتراكية ، الذى يعتبر بالدرجة الاولى خلافا سياسيا طبقيا · يزجون فيه بالاسلام عنوة ، فى محاولة لاستعداء المؤمنين ، ضد أفكار العدالة والمثل الانسانية ·



الثمن ٢٠


دار الثقافة الجديدة